القسم الثالث

أبعاد التحالف الطبقي بين المثقفين الوطنيين والعمال والفلاحين

الفصل الثامن

أصالة وثورية الطبقات المنتجة وهامشية الطبقات المستغلة

مدخل :

بالرغم من أن مبـــدأ علاقة وارتبـــاط المثقفين الوطنيين والثوريين بالطبقات الكادحة فى المجتمع هى علاقة وارتباط صميمى وقضية أصبحت بديهية فى اطار النضال الوطنى والعمل السياسى على الأقل ، الا أن الأمر يحتاج فى تقديرنا الى تحليل أبعاد هذه العلاقة برؤية تاريخية وطبقية أكثر عمقا ، وبعدا اجتماعيا أكثر شمولا ، وذلك حتى نتجاوز بفهم هذه القضية الأساسية مجرد كونها مفهوما سياسيا يباح استخدامه للمناورات والتكتيكات السياسية لكل من يحتاج الى ذلك عند الاقتضاء فقط ، أو مجرد كونها موقفا شخصيا يستطيع أن يتقمصه أى شخص متى شاء ويتخلى عنه متى يشاء ، بغض النظر عن صفته الاجتماعية أو بعده الطبقى ، ويتجاوز بها الى حقيقة كونهـــا قضـــية تاريخية وطبقية فى الأســـاس ، ولم تكن هواية شخصية فى التفكير أو مهارة فى التصرف الدبلوماسى والسياسى عادة .

اذ لابد وأن نتســـاءل بحزم وجدية عن الأسباب التى تجعلنـــا نقبل بالافتراض الشائع والقـــائل : بأن كل مثقف وطنى وثورى هو بالضرورة حليف للطبقات العاملة من فلاحين وعمال وبرجوازية وطنية صغيرة،وهل هذا التحالف والارتباط الجدلى يستمد حقيقة وجوده من واقع كون هؤلاء المثقفين الوطنيين والثوريين هم هـكذا بحكم طبيعتهم « ثوريين » ويأتى تحالفهم مع الطبقات الكادحة نتيجة تقديرهم لاحتياج هـــذه الطبقات لجهودهم وآرائهم فى نضالها وحل مشاكلها ، باعتبار أن الطريق الوطنى والثورى هو أنسب الطرق وأجداها لتحرير هذه الطبقات وازالة الظلم والاستغلال عنها ؟ أم أن العكس هو الصحيح ، حيث يكمن المد الوطنى والثورى فى جوهر التكوين الاجتماعى والتاريخى لهذه الطبقات العاملة ؟ ويقتصر دور المثقفين الوطنيين والثوريين باعتبارهم جزء لا يتجزأ من هذه الطبقات نفسها على القيام ببلورة هذا المد الوطنى والثورى والتعبير عنه والقيـــام بدور الطليعة فى مسيرته النضالية ؟.

واذا كنا لا نجد كبير عناء فى ضوء كل ما سبق من تحليلات وتفاصيل فى هذا البحث أن نفترض خطأ التساؤل الأول وسلامة التساؤل الثانى ، فان الشىء الذى سيبقى علينا تحليله هنا هو الرد على هذا التساؤل : ما هو الأساس الاجتماعى والتاريخى الذى نجتزم من خلاله بوطنية وثورية الطبقات الشعبية العامله والمنتجة فى المجتمع واعتبارها التجسيد الحقيقى لوجوده ، ومن خلالهم تتحقق حركة الواقع وتطوره فى الطبيعة والمجتمع أكثر فأكثر ، كمسألة تاريخية وجدلية ، وارتباط المثقفين الوطنيين بهذه الطبقات كأدوات تعبيرية وطليعة نضالية لا أكثر ، وذلك حتى لا تضل هذه المسألة كما يظن الكثيرون من الانتهازيين ممن لا صلة لهم بها الا كمجرد هواية للاستعراض الشخصى أو مهارة فى التصرف الدبلوماسى عند الاقتضاء كما سبقت الاشارة ٠

ولنبدأ فى هذا الفصل البحث فى البعد الاجتماعى والجدلى لوطنية وثورية الطبقات العاملة والمنتجة وأساسه التاريخى ، ثم نناقش بعد ذلك وطنية وثورية المثقفين الوطنيين وعلاقتهم الجدلية بهذه الطبقات فى الفصل التالى والأخير من هذا البحث ٠

الأسس الاجتماعية والتاريخية لثورية الطبقات المنتجة

ان الطبقات القاعدية والوسطى التى تشكل الغالبية العظمى من أفراد أى مجتمع قد دللت كل حقائق التاريخ والتطور وطبيعة الوقائع المعاشة أنها ذات مصالح مادية واقتصادية مترابطة ، وأبعاد فكرية وأيديولوجية ثورية مشتركة ، بل وتشكل المصدر والأرضية التاريخية الحقة التى لا نجد فى تاريخ البشرية كلها أية فكرة ثورية أو تحول ثورى فى تاريخ الطبيعة والمجتمع قد تمت بمعزل عن هذه الطبقات أو بعضها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، والعكس بالعكس صحيح بالنسبة للأقليات الطبقية المسيطرة التى تقف دائما ضد حركة التاريخ وتتميز دائما باستراتيجية فكرية وأيدولوجية محافظة ورجعية وذات طبيعة انتهازية واستغلالية متسلطة دائما ، كما أن الفئات والطبقات الشعبية عموما « الجماهير الشعبية المنتجة » هى دائما بما تعيشه من ظروف وأوضاع اجتماعية واقتصادية مختلفة تقدم بلا أدنى شك أو غموض التفسير الحقيقى والعلمى للواقع الاجتماعى القائم ، وتأكيد كينونته من جهة ، وهى من جهة أخرى قد قدمت بما مرت به من مراحل التطور التاريخى المختلفة للمجتمع البشرى منذ المشاعية وحتى عهد الاشتراكية والامبريالية فى الوقت الحاضر ، قدمت التفسير الحقيقى للتاريخ ، بل لقد صنعت بذلك التاريخ الانسانى نفسه على هذا الكوكب

ابتداء من اكتشاف النار والتقاط الثمار حتى سفن الفضاء وارتياد الكواكب الأخرى ٠

وهى بذلك لم تكن قد صنعته وفسرته بطريقة صحيحة من خلال وجودها وفاعليتها فيه وحسب ، ولكنها ما تزال كذلك هى التعبير الجدلى الصحيح لمساره المتطور فى الحاضر والمستقبل ، بلا توقف ، وتعبر عن اشد جوانبه ثورية وتقدمية بلا كلل وبغير مواربة ، ومن خلالها فحسب يتحقق قانون الجدل والتطور التاريخى نفسه وفاعليته الحتمية فى الطبيعة والمجتمع أكثر فأكثر ٠

انها أيضا بنمط علاقاتها الانتاجية والاجتماعية ومضمون أيدولوجيتها التقدمية والمتحررة تشكل التجسيد الفعلى للوجود الحقيقى للمجتمع الذى ينسجم مع قوانين التحول والتطور الايجابى فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والطبقى أيضا أزاء أيدولوجيات الأقليات الطبقية المستغلة والمنحطة ٠ فحيال أيدولوجيات الانحطاط ـ كما يقول روجيه جارودى ـ تصعد هذه الطبقات لأنها دائما تقبل الواقع حكما لأفكارها كلها ، ابتداء من ديكارت الى ديدرو فى مواجهة الاقطاعية المتعفنة ، ومن ماركس وانجلز الى لينين وستالين ، فى مواجهة الرأسمالية السائرة خلال قرن نحو مرحلتها « المتعفنة »(١) ٠

الطبقات المستغلة كظاهرة عرضية خاطئة

ومن هنا تتأكد حقيقة تاريخية واجتماعية أخرى لا تقل أهمية عن الحقائق السابقة وهى أن كل أشكال الوجود الطبقى والاجتماعى الأخرى التى تلاحظ دائما خارج اطار الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة بصورة مباشرة وغير مباشرة هى : اما فئات اجتماعية هامشية ملحقة ومكلة لها ، كالمثقفين الوطنيين والثوريين أو الموظفين والاداريين والجنود والفنانين والصحفيين ممن ينتمون أساسا لهذه الطبقات العاملة ويتبنون أيديولوجيتها بقناعة ويدافعون عنها بصدق من خلال منظماتها السياسية والجماهيرية المختلفة ، أو متحالفة معها الى هذا الحد أو ذاك كالبرجوازية الوطنية الصغيرة غير المستغلة ٠ أما ما عدا ذلك من الفئات والطبقات الأخرى التى عرفت فى تاريخ المجتمعات وحتى اليوم من اقطاع وبرجوازية مستغلة ورأسمالية

---

(١) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، مرجع سابق ، ص ٤٣٦ و ٤٣٧ ٠

وغيرها من الجماعات الأولجاركية العسكرية والدكتاتوريات المستبدة والأرستقراطيات السياسية والاجتماعية والعشائرية بمختلف أشكالها وأيدولوجياتها المثالية والأسطورية المعادية للعلم والتاريخ من جهة والمغرقة فى الرجعية والتخلف والاستغلال للطبقات المنتجة الأخرى من جهة ثانية ، فانها جميعا لم تكن وفقا لهذا التفسير الجدلى مجرد أشياء خارج التاريخ والوجود الحقيقى للمجتمع وزائدة عليه فحسب ، ولكنها تشكل التجسيد الفعلى لواحد من أهم أخطاء المجتمع البشرى فى نضاله عبر التاريخ ضد قهر الطبيعة وصولا الى تحقيق حريته وسيادته ورفاهيته وتقدمه عليها أكثر فأكثر ، الأمر الذى اضطره منذ وقت مبكر فى النضال ضد شكلين رئيسيين من أشكال القهر وهما قهر الطبيعة من جهة وقهر المجتمع الناجم عن ذلك الخطأ من جهة ثانية حتى اليوم ٠

فلقد برز نظام تعدد الطبقات فى بعض المراحل التاريخية وكما لو كان هو ممر العبور الأساسى الذى لا مناص من اجتيازه ، والضريبة المرهقة التى توجب على المجتمع الانسانى أن يدفعها من أجل الظفر بأعظم الانتصارات التاريخية الحاسمة فى نضاله ضد الطبيعة ، الأمر الذى دفع هذه الفئات والطبقات الطفيلية المستفيدة من هذا الخطأ الفادح والتى هى ثمرته الى تكريس وجوده وتقديمه باعتباره الحقيقة المثلى والوحيدة الصالحة لتنظيم هذا العالم وتدبير شئونه وتفسير وجوده بغير بديل ، رغم أن كل الانتصارات التقدمية التى حققها المجتمع الانسانى حتى اليوم فى ظل ادعاء الملكية الخاصة للثروة والسلطة والقوة وبسبب هذا الادعاء نفسه قد اقترنت بالعديد من الكوارث الاقتصادية والاجتماعية والانسانية من حروب واستعمار وغيره ، الأمر الذى كاد يجعل من انتصارات المجتمع الانسانى ضد الطبيعة تتحول الى أدوات قهر واستغلال اجتماعى وطبقى ضد المجتمع نفسه هى أكثر خطورة من قهر الطبيعة نفسها ٠

ففى جميع الأنظمة التى سبقت الاشتراكية ـ كما يقول روجيه جارودى ـ حدثت التنمية من خلال نظام الطبقات العاملة ، فى شكل كوارث اقتصادية وسياسية ، لأن وسائل الانتاج كانت ملكية فردية ، سواء فى النظام العبودى أو الاقطاعى أو البرجوازى(٢) ٠ كما أن نظام الطبقات برمته لم يكن فى حقيقته ودلالته العلمية والتاريخية أكثر من كونه ـ كما

---

(٢) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، مرجع سابق ، ص ٤٤٦ ٠

يقول لينين - هو ما يتيح لقسم من المجتمع أن يستأثر بعمل الآخرين(٣) . فمن خلال تملك بعض الأفراد لفائض الانتاج - كما يقول الدكتور الجوهرى أيضا - ظهرت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وظهر معها استغلال الانسان للانسان . لذلك يمثل تملك وسائل الانتاج ، وما يتبعه من استغلال يمثل الأساس الموضوعى لقيام الطبقات والصراع الطبقى(٤) .

فالنظام الطبقى يستمد وجوده فى الأساس من وجود الملكية الخاصة والاستيلاء على فائض الانتاج ويزول بزوالها ، أكثر مما يستمد وجوده أو عدم وجوده من شروط تطور قوى الانتاج وتتالى المراحل التاريخية ، أو مشروط وجوده بوجود المجتمع نفسه كنظام العمل والانتاج والأسرة والسلطة واللغة ... الخ . الأمر الذى اخطأ فيه ماركس حينما افترض بحماس وتشدد بأن زوال النظام الطبقى وقيام الاشتراكية لن يتم الا فى ظل المجتمع الصناعى واتساع نطاق طبقة العمال البروليتارية تحت سيطرة الطبقة الرأسمالية ، وان على كل المجتمعات التى ما تزال تعيش ما قبل مرحلة الرأسمالية من اقطاعية وشبه اقطاعية أن تناضل أولا من أجل القضاء على الطبقة الاقطاعية وخلق طبقة برجوازية ينجم عنها فيما بعد طبقة بروليتارية من جهة ورأسمالية من جهة أخرى يختل معها التوازن لصالح الأولى وضد الثانية التى هى آخر الطبقات ، وقد حان قطافها .

فلقد جاءت كل الوقائع اللاحقة لعهد ماركس وما بعده وحتى الآن فى غير صالح هذه المقولة تماما ، وأعظم دليل على ذلك هو قيام أول نظام اشتراكى فى الاتحاد السوفيتى وهى دولة غير صناعية وشبه اقطاعية . ولقد حسم لينين هذه القضية بوضوح فى التأكيد على امكانية قيام الاشتراكية فى بلد واحد وبتحالف العمال والفلاحين فى بناء الدولة والمجتمع الاشتراكى .

فنظام الطبقات الناجم عن نظام الملكية الخاصة والاستحواذ على فائض انتاج الآخرين هو نظام زائد وعرضى فى وجوده ، سلبى معوق ومضر فى دوره ووظيفته وليس مشروط قط بأية حالة من حالات التطور الاجتماعى ومراحله التاريخية لأن المجتمع الانسانى قد عاش آلاف السنين فى مراحله المبكرة

---

(٣) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٤) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢١٨ .

وما يزال بعضها كذلك حتى الآن دون ملكية خاصة وبالتالى بلا طبقات(٥) . كما أن أكثر من ثلثى سكان الكرة الأرضية يقيمون اليوم أبهى الحضارات وأكثرها استقرارا وتحقيقا لسعادة الانسان وتقدمه بفعل نفس الشىء من خلال التنظيم الاشتراكى العلمى دون أن تكون كلها قد اضطرت للقبول بالنظام الرأسمالى الكبير واقامة المجتمع الصناعى الرأسمالى أولا كشرط جدلى لتحقيق الاشتراكية فى مجتمع لا طبقى .

ففى أى لحظة يستطيع فيها أى مجتمع من المجتمعات التى ما تزال ترزح تحت نير هذا النظام العرضى المعوق أن يتخلص منه نهائيا سواء كان هذا المجتمع اقطاعيا أو شبه اقطاعى أو رأسمالى ، فانه بذلك يكون قد استعاد توازن حركة تطوره التاريخى المنسجم وطبيعة وجوده من جهة وصحح أعظم خطأ عرفه تاريخ الممارسة البشرية فى نطاق الطبيعة والمجتمع من جهة ثانية ، وحقق أعظم انتصاراته التاريخية الحاسمة ضد أعظم تحدى ما يزال يهدد حاضره ومستقبله من جهة ثالثة .

الخطأ الأول

فلقد ارتكب أول خطأ اجتماعى فادح فى التاريخ بعد اكتشاف الزراعة والنار واستئناس الحيوان بادعاء الملكية الفردية الخاصة أو العائلية للأرض وموارد الطبيعة الأخرى ، ورغبت كل جماعة فى الاستحواذ على أكبر كمية ممكنة من ذلك دون غيرها مما قاد الى حروب ابادة واسعة من قبل الجماعات المنتصرة للجماعات المنهزمة ظنا منها بأن ابادة الجماعات المغلوبة هو الضمان الوحيد لحصولها على موارد الأرض والطبيعة التى يعيشون عليها ، لأنهم لو أبقوا على حياتهم فان ذلك يعنى ضرورة اطعامهم مما يعنى أيضا استمرارهم فى استهلاك موارد الأرض والطبيعة بصورة أو بأخرى ، وهذا هو أول مفهوم منحرف فى التاريخ للعلاقات الاقتصادية بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وفى مرحلة لاحقة أدرك المجتمع أو اكتشفت الجماعات المنتصرة امكانية ابقاء الجماعة المنهزمة على قيد الحياة مقابل تسخيرها للعمل والانتاج بلا مقابل سوى ما يقيم الأود ويحافظ على البقاء من أجل استمرار العمل

---

(٥) راجع الفصل الثالث من هذا البحث خصوصا فيما يتعلق بأساس التركيب الاجتماعى والاقتصادى للمجتمعات التقليدية المعاصرة فى افريقيا غرب وجنوب الصحراء ، وبقايا المجتمعات الهندية القديمة فى أمريكا اللاتينية والتى ما تزال جميعها تعيش علاقات اجتماعية واقتصادية مشاعية بلا طبقات حقيقية الى حد ما .

لصالح الجماعة المنتصرة التي تحصل على الجزء الأكبر من الانتاج بلا عمل ، ضمن اطار من التنظيم الاجتماعى العبودى البحت بين الجماعات المنتصرة والجماعات المنهزمة ٠

ولقد قبل الطرفان بهذا التنظيم الجديد كخطوة أفضل مما قبلها بكل تأييد ، حيث ما لبثت الملكية الخاصة أن اتسع نطاقها الفردى داخل الجماعات المنتصرة نفسها ، واتسع بالمقابل أيضا النظام العبودى وصارت الملكية الخاصة للأرض وللبشر هى التعبير السياسى والاقتصادى لوجود طبقة جديدة محدودة تملك وتسود ، فى مقابل طبقة اجتماعية واسعة مستعبدة تنتج ولا تملك حتى نفسها ، وقبل المجتمع بهذا التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والعبودى ٠

ولم يكن هذا القبول من المجتمع ليشكل الحل النهائى لواقعة بقدر ما أنه قد شكل الخطوة الأخيرة فى تجاوز المرحلة السابقة الأكثر سوءا والبداية الأولى فى النضال ضد هذا التنظيم الخاطىء نفسه ، وبنفس الطريقة والوتيرة الجدلية المستمرة ، كان قبول المجتمع بعد ذلك لنظام الاقطاع والقنانة هو آخر خطوة فى النضال ضد العبودية والحصول على حق الفرد فى امتلاكه لنفسه وجهده على الأقل ، والبداية الأولى فى النضال ضد الطبقة الاقطاعية ووجودها العرضى الخاطىء ، وكان أيضا قبول المجتمع الانسانى الحديث بنظام الطبقة البرجوازية فى أوربا وامتداداتها الدولية ، هو نقطة الحسم فى القضاء على الطبقة الاقطاعية ونقطة البدء فى النضال الحاسم ضد هذه البرجوازية والرأسمالية نفسها كنظام عرضى وخاطىء ومعوق أيضا لحركة التاريخ والتقدم الاجتماعى والاقتصادى الحق وغير منسجم معها ، وصولا الى المجتمع الاشتراكى اللاطبقى الذى تتحقق فيه لأول مرة درجة عالية جدا من التوافق والانسجام بين قوانين حركة التاريخ والتطور التاريخى الحقيقى فى وضع المجتمع من جهة ، وبين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج من جهة ثانية ٠ وهو الأمر الذى تجهد هذه الطبقات الطفيلية نفسها لأن تجعل من هذه الوتيرة الخاطئة قاعدة عامة لتطور الحاضر والمستقبل الرأسمالى ، أو طريقا ملزما وثابت الأيقاع بالنسبة لمجتمعات ما قبل الرأسمالية فى الوقت الحاضر على الأقل ، الأمر الذى لم يعد القبول به ممكنا ، ويجب رفضه ٠

الطبقات المستغلة تؤمن بالمادية من أجل الحصول على الثروة والسلطة ، وبالمثالية من أجل المحافظة عليهما

فلقد كان العامل الحاسم والجوهرى فى كل هذه الحركة التاريخية وتطورها الثورى بفعل السواد الأعظم من الناس فى المجتمع وانجازاتهم المادية والاقتصادية فى كل مراحل التاريخ ، سواء كانوا عبيدا أو أقنانا فى الأرض أو عمالا فى المصانع أو متخصصين فى المعامل وليس بفعل طبقة الملاك الاقطاعيين أو البرجوازية أو الحاكمين منهم ، فقد كان الصراع الذى لا ينفك - كما يقول بوتومورو - بين الطبقة الحاكمة والطبقة أو الطبقات الخاضعة ، هو أن طبيعة هذا الصراع ومجراه يتأثران أساسا بتطور القوى الانتاجية أو التغير الذى يطرأ على التكنولوجيا(٦) . ولقد كانت هذه الأقليات الطبقية التى اختلست لنفسها حق الملكية والسلطة هى العامل السلبى والمعوق الأول والأساسى للأداء المثالى المتناسق والمنسجم لهذا الانجاز والتطور التاريخى المستمر من خلال دعوى الملكية والانفراد بالسلطة والقوة والعيش على ممارسة القهر والاستغلال ومحاولة تثبيت الواقع حيث هو وجعل حركة التطور لا تتحرك الا فى الاتجاه الذى ينسجم وطبيعة هذه الدعاوى الفاسدة والممارسات المشوهة لحياة الانسان وتاريخه والمحافظة عليها فى اطار نزعة رجعية متخلفة حتى الآن .

وكأن هذه الأقليات الطبقية المتطفلة تريد عبثا من حركة التاريخ والتطور أن تتحرك ضد نفسها أو ضد قوانينها على الأصح ، ذلك أن هذه الفئات والطبقات البرجوازية والرأسمالية المتطفلة لا تؤمن بالتقدم والعلم ولا تستعمله الا بصفته « ربحا » ذلك أن حدود الانتاج الاجتماعى الاجتماعى فى المجتمع الرأسمالى المعاصر - كما يقول بليخانوف - تعينها امكانية انفاق مربح للرأسمالية لا الحجم المطلق للقوى الانتاجية(٧) .

بل انها ترفض حقائق العلم والتاريخ وتحاربها وتنضم الى صف الشعوذات والخرافة وتدافع عنها اذا ما لاح لها أن فى استخدام هذه مزيدا من الربح وفى تلك عائقا أو تهديدا لهذا الربح ولوجودها الطفيلى الغريب نفسه فى مسار التقدم والتطور التاريخى الحق ، فمنذ الآن - كما يقول

---

(٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٤٣ .

(٧) جروج بليخانوف : العامل الاقتصادى فى التاريخ ، ترجمة جورج طرابيشى ، دار الطليعة - بيروت - الطبعة الاولى ١٩٧٨ ، ص ٦٤ .

كارل ماركس - بدأت الأمور تسير لا على أن هذه النظرية أو تلك صحيحة أم خاطئة ، بل على أنها مفيدة أم مضرة للرأسمال ، مناسبة أم غير مناسبة ، اتتفق مع العقل البوليسى أم لا(٨) ٠

فلكى تهاجم البرجوازية الصاعدة فى القرن الثامن عشر المفهوم الاقطاعى للحق الالهى كانت تتسلح بالمادية ، وتطالب أن يتمسك الناس بالحقيقة العارية « دون أية اضافة غريبة » ٠ فالبرجوازية اذن فى عصر شبابها لا تخاف الواقع ، ففلاسفتها الذين كانوا يمثلونها ، من أمثال « ديدرو » و « فيور باخ » و « هلفسيوس » ماديون مادية عميقة وعمل مفكريها نشيد مجد على شرف العلم والتقدم والآلية الناشئة المبشرة بمزيد من الربح ، الا أن هذه الطبقة ذاتها بعد أن أنجزت ثورتها صارت طبقة هرمة بسبب جرائمها وأخطائها الفادحة والتى صار فى مقدمتها استمرار وجود هذه الطبقة نفسها ، وعجزت عن حل المشكلات التى طرحها التقدم العلمى والتقنى الذى أنجزته الطبقات المنتجة فى صميم الواقع الاجتماعى والتاريخى والناجم عن انتصارها ذاته(٩) ٠

وفى هذه المرحلة التى لم يعد فى مقدور العلم أن يعكس الواقع عكسا صادقا دون أن يلوح بأخطار كثيرة على النظام القائم وينبىء عن نهايته ، أصبح منطق البرجوازية والرأسمالية - كما يقول جارودى - يقضى بأن يقذف رويدا رويدا بجميع أشكال الفكر العقلانى والموضوعية العلمية باعتبارها شهودا مزعجين(١٠) ٠ فالبرجوازية منذ الآن تفقد ثقتها بالعلم وتعين للفلسفة مهمة اظهار أن العلم يمكننا من معرفة غور الأشياء وأن ليس للعلم سوى مغزى تقنى ، فليقدم العلم تعبيرا عن هذا المنطق المشوه ما يتيح القيام بتطبيقات تقنية ، هذا أمر حسن ، لأن الصناعة تطلب ذلك ، لكن يجب أن لا يسمح له بالاجابة على الأسئلة المتعلقة بالانسان ومصيره ، وخاصة يجب أن لا يتسلل الى أرض التاريخ ، وبكلمة واحدة يجب أن لا يمس الواقع الاجتماعى والعالم الواقعى ، فلم تعد الرأسمالية بحاجة الى الفلسفة من أجل تنميتها بل من أجل الدفاع عنها

---

(٨) س٠ى٠ بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٢ ، ص ١٦٧ ٠

(٩) راجع روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٣٩٨ الى ٤٠٠ ٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٩٦ ٠

وحسب(١١) . وما دامت ثقة البرجوازية والرأسمالية بالعلم وحقائق الواقع والتطور التاريخى قد انتهت للأسباب السابقة ، فهى لابد وأن تفسح المجال بدلا من ذلك لفلسفات الخرافة والشعوذات والأساطير الوجودية والبرجماتية والوظيفية وغيرها من الفلسفات المعاصرة التى تساعد على تثبيت الواقع حيث هو .

وعندما تهتم الفلسفة - كما يقول جارودى أيضا - بـ « اثبات » عجز الفكر البشرى وعدم قدرته على معرفة العالم الواقعى واستحالة تبديل الواقع فتلك أبلغ دلالة على انحطاطها ، وذلك لأنها صارت خادمة طبقة لم تعد تقبل الواقع حكما لأفكارها . ومثل هذه الطبقة التى حكم عليها التاريخ بالموت لا تستطيع أن تحاول تخليد النظام القائم الا بمنعها للفكر من أن يعى فوضى الواقع العميق والتناقضات الداخلية التى تقودها الى حتفها(١٢) .

هذا فى الوقت الذى كان المجتمع الانسانى دائما ممثلا بأوسع قواعده من الطبقات والفئات العاملة والمنتجة يتحرك دائما فى الاتجاه المضاد الذى ينسجم وطبيعة التطور التاريخى ، فيتصارع مع هذه الأقليات الطبقية اجتماعيا وسياسيا بلا هوادة بصورة مباشرة وغير مباشرة من جهة ويحقق من الانجازات الاقتصادية والتكنولوجية تحت سيطرتها ما يجعل من استمرار بقائها كما هى وكما ترغب دائما أمرا مستحيلا ، بينما تتيح هذه الانجازات للمجتمع وقطاعاته المنتجة فى الوقت نفسه أسلحة أكثر قوة وحسما فى مواجهة هذه الأقليات الطبقية وأهدافها غير المشروعة والمعيقة للتقدم وصولا الى القضاء على وجودها من خلال القضاء على الملكية والسلطة الرأسمالية ، وتحقيق الاشتراكية والمجتمع اللاطبقى الأكثر انسجاما وطبيعة التطور الانسانى والتاريخى بعامة(١٣) .

فصراع الطبقات داخل المجتمع الرأسمالى اليوم - كما يقول بوتومورو - سينتهى حتما بانتصار الطبقة العاملة ، وسيتبع هذا انتصار اقامة مجتمع لا طبقى . وهناك عدد من المبررات تسند توقع حدوث المجتمع اللا طبقى ،

---

(١١) راجع المرجع السابق ، ص ٤٠١ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٤٣٦ .

(١٣) يمكن ملاحظة الأمثلة على ذلك من خلال ما حدث للطبقات الاجتماعية فى أوربا التى تهاوت تحت ضربات طلائع البرجوازية الثورية وقتها ، والبرجوازية نفسها حينما تضاءلت حتى العدم تقريبا فى الوقت الحاضر تحت ظل أوسع الاحتكارات الدولية .

أما المبرر الأول فهـــو أن الرأسمالية الحـــديثة تميل الى خلق طبقة عاملة متجانسة قوية بحيث يصعب أن تظهـــر من خلالها فى المستقبل تقسيمات اجتماعية جديدة ، والمبرر الثانى هو أن الكفاح الثورى للعمال يخلق بينهم تعاونا قويا وعاطفة أخوية شديدة ، وأن مثل هـــذه العاطفة تتدعم وتقوى من خـــلال المذاهب الاخلاقية والاجتمـــاعية التى تتبناها الحركة الثورية ، وهى مذاهب واضحة تماما فى فـــكر ماركس • أما المبرر الثـــالث فهو أن الرأسمالية ذاتهـــا تخلق ظروفا مادية وثقافية مهيئة للمجتمع اللاطبقى ، فالظروف المادية تتمثل فيما تقـــدمه الرأسمالية من انتـــاج هائل يجعل من الممكن اشباع الحاجات الانسانية لـــكل الناس وما يترتب على ذلـــك من ازالة حدة الكفاح من أجل البقاء ، أما الظروف الثقافية فتتمثل فيما تسهم به الرأسمالية من نهوض للحيـــاة الريفية وعلى الأخص فى مجـــال التعليم وانتشار المعرفة العلمية واهتمام الجماهير بالحياة السياسية(١٤) •

مع ملاحظة أن صيغة كلمات بوتومورو تنسب الى الرأسمالية الحديثـــة فعل الأشياء وانجازها ، وربمـــا كانت الصيغة الأقرب الى الموضوعية هى أن المجتمع نفسه تحت قيـــادة السلطة الرأسمالية وفى ظلهـــا هو الذى يقوم بانجاز هذه الأشياء فى نطـــاق الطبيعة والمجتمع ، والتى يتحقق من خلالها عدد من النتائج الايجابية بالنسبة للمجتمع وحركة التطور والتقدم التاريخى للانسان بصفة عامة وعـــدد آخر من النتـــائج السلبية بالنسبة للرأسمالية كظاهرة اجتماعية « باثيولوجية » وتنظيم اقتصـــادى خاطىء • واذا ما جاز القول بأن الرأسمالية هى التى تخلق هـــذه الأشياء فهى لا تخلقها بمحض ارادتها ، لأنها على العكس من ذلك تقاوم الخلق والتقـــدم والتطور الحقيقى ما استطاعت الى ذلـــك سبيلا ، ولا يعقـــل أن تخـــلق شىء برغبتهـــا سيكون هو سبب فنائها حتما •

كما أننا غالبـــا ما نسمع ـ كما يقول لينين ـ أن الملاكين العقـــاريين والتجـــار « يعطون » الشعب « عملا » ، « يعطون الفقراء موردا للرزق » ،

---

(١٤) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٤٤ •

يقال مثلا ، ان فلاحي تلك المحلة « يعتاشون » من المصنع المجاور ، أو من الاستثمارة الزراعية المجاورة . غير أن العمال هم الذين ، فى الواقع ، يعتاشون من عملهم ، ويعيشون جميع الذين لا يشتغلون ، الا أنه لقاء الاذن بالعمل فى أرض السيد أو فى المصنع أو فى السكة الحديد يقوم العامل باعطاء المالك مجانا كل ما يصنع ، بينما لا يتلقى هو سوى أجر زهيد . وهكذا نرى فى الواقع أن ليس الملاكون العقاريون ولا التجار هم الذين يعطون العمال عملا ، وانما هم العمال الذين يعيلون بعملهم الجميع ، مقدمين مجانا قسما كبيرا من كدحهم(١٤) . وهذا هو ما يؤكد بأن الطبقات العاملة والمنتجة هى التى تصنع الحياة والتقدم ، وليس العكس .

وهنا لا تتأكد الحقيقة العلمية والتاريخية التى صاغها كارل ماركس بأن كل شكل من أشكال التطور والتنظيم الطبقى فى المجتمع ما كان ليبدأ بالظهور حتى كان قد تضمن فى تكوينه أيضا بذور افنائه وحسب بل وبصفته أيضا وجودا زائدا واستثنائيا شاذا خارج التاريخ والواقع الاجتماعى الحق ، ومجرد نموذج للخطأ النسبى الذى ظل يلازم الممارسة والفعل التاريخى للمجتمع الانسانى عبر تاريخه الطويل ، والذى كان وما يزال يناضل من أجل ازالة هذا الخطأ وتخفيف حدته أولا بأول حتى الآن ، شأنه شأن غيره من الأخطاء والعوائق والصعاب الأخرى فى الطبيعة والمجتمع ، التى كان الانسان وما يزال يناضل ضدها بغير كلل وتتعاظم انتصاراته عليها كل يوم أكثر وأكثر .

فالطبقات هى بأبسط دلالاتها ومحتواها استئثار فئة معينة فى المجتمع بالثروة والأرض دون الغالبية العظمى فيه وممارسة مختلف أشكال التسلط السياسى والقهر الاجتماعى لفرض هذه القضية والمحافظة عليها ، ان الطبقات بوجه عام - كما يقول لينين - هى ما يتيح لقسم من المجتمع أن يستأثر بعمل الآخرين ، فاذا استأثر قسم من المجتمع بكل الارض كانت طبقة الملاكين العقاريين وطبقة الفلاحين ، واذا امتلك قسم من المجتمع المصانع والمعامل والأسهم والرأسمال بينما القسم الآخر يشتغل فى هذه المصانع كانت طبقة

(١٤ مكرر) لينين : الى الفلاحين الفقراء ، دار التقدم ، موسكو ، ص ١٥ .

الرأسماليين وطبقة العمال والبروليتاريا(١٥) ٠

النظام الطبقى كظاهرة مغتربة

ان نظـــام الطبقات المستغلة لم يكن كما سبقت الاشارة مجرد خطـأ شائع فى تاريخ الممارسة البشرية ، وأنه يكفر بالعلم ويعيق التقدم فحسب ، بل ان فى هذا النظام ومن خلاله تتجســـد قصة اغتراب المجتمع الانسانى القديم والجـديد ، فالنظـام الطبقى - من وجهـة النظـر العلمية أيضـا - هو أعظم تجسيد لحالة الاغتراب التى وقع فيها المجتمع الانسانى منذ فجر تاريخه الحضارى وحتى اليـوم ، وان هـــذه الحالة قد وجدت فى ظروف تاريخية معينة وترتبط بتوفر هـــذه الظروف ، وأن أساسها هو اغتراب العمل الذى يميز كل نظم الملكية الخاصة ابتداء من نظام الرق حتى النظـام الرأسمالى(١٦) ٠

ومن هنا فقد اغترب - كما يقول الدكتور مراد وهبه - كل من العامل والرأسمالى فى العملية الرأسمالية للانتاج ، على الرغم من أن كل منهما نقيض الآخر ٠٠ فالرأسمالى مضطر الى المحافظة على وجوده وبالتـــالى المحافظة على وجود العامل ، أما العامل فهو مضطر الى ازالة وجوده وبالتالى إزالة وجود نقيضه الذى هو شرط وجوده كعامل « أى الرأسمالى » والفارق بين اغتراب كل منهما أن الرأسمالى يجد فى اغترابه الذاتى قوته وخيره ، ويجد العامل فى اغترابه الذاتى أنه لا حول له ولا قوة وأن وجوده لا انسانى ، ومن ثم يحافظ الرأسمالى على هذا التناقض فى حين يرغب العامل فى تدميره(١٧) ٠

ومن هنا أيضا لا تتأكد حقيقة أن النظام الطبقى الناجم عن نظام الملكية الخاصة هو أساس أغتراب المجتمع الانسانى فحسب بل واعتباره أيضـا ظاهرة معوقة للتقدم فى مقابل حقيقة المفهوم التقدمى والثورى للطبقـــات المنتجة الرامية الى مكافحة هذا الاغتراب والقضاء عليه ٠

وهكذا فان الفرض الذى أصبح حقيقة واقعية حول امكانية اقامـــة

---

(١٥) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم موسكو ، ص ١٣١ ٠

(١٦) راجع مجلة عالم الفكر : المجلد العاشر ، العدد الأول ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٩ عدد خاص عن الاغتراب ، ص ٦ ٠

(١٧) د٠ مراد وهبه : المرجع السابق ، ص ١٠٣ و ١٠٤ ٠

مجتمع اشتراكى ولا طبقى لم يكن ذلك قط خروجا على قوانين الطبيعة والمجتمع ونذيرا بخروج الارض على طاعة السماء كما تروج لذلك كل الفلسفات البرجوازية والرأسمالية القديمة والأفكار الرجعية والمتخلفة ، بقدر ما هو يمثل التوصل الى تحقيق الانسجام الكامل بين قوانين التطور التاريخى للمجتمع والمجتمع نفسه ، الانسجام بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج فى مجتمع لا طبقى يخلو تماما من الظلم والاغتراب وعوائق التقدم واستغلال الانسان لأخيه الانسان ، وهو من جهة أخرى يشكل نقطة الحسم النهائية فى تمكين المجتمع الانسانى من أستأصال جذور اغترابه الناجم عن ارتكاب أول خطأ فى تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والذى ظل يتكرر زمنا طويلا بصور وأشكال مختلفة وهو النظام الطبقى نفسه ، والذى برز فى بعض مراحل التطور التاريخى وكما لو كان هو الممر الذى يتوجب المرور من خلاله وصولا الى أكثر المراحل تطورا ونضجا فى الوقت الحاضر والتى صار النظام الطبقى معها مسألة زائدة وغير ذات مدلول ايجابى على الاطلاق ، بل صار ذا مدلول معوق يجب تجاوزه ٠

ومسألة الوصول الى امكانية هذا الحسم التاريخى لنظام الطبقات فى الوقت الحاضر لم تكن لتتأتى امكانيته من خلال عمليات مبارزة فروسية بين المجتمع والطبقات المستغلة والمسيطرة فيه فى الماضى حينما كانت تسقط الطبقة فتظهر طبقة غيرها من العبودية الى الاقطاع فالبرجوازية ثم الرأسمالية والامبريالية العالمية التى تبدو الآن وكما لو كانت بالفعل هى آخر من يتقدم الى ساحة المبارزة ، أبدا ليست المسألة بهذه البساطة أو السذاجة على الأصح كما يظن البعض ، ولكن عملية الحسم هذه كانت تتم فى الواقع المادى والاقتصادى أصلا وما يطرأ عليه من تحول جذرى فى قوى الانتاج الذى يستلزم بالضرورة تحول موازى فى علاقات الانتاج بحيث يتحقق الحد الأدنى على الأقل من التوافق والانسجام ، حتى اذا ما فشلت هذه العلاقات فى مرحلة لاحقة تكون أكثر تقدما وتطورا فى قوى الانتاج من خلال استمرار تنامى كدح وفعالية الطبقات المنتجة وحدها فى المجتمع ، استلزم بالضرورة التخلى عن العلاقات القديمة واستبدالها بعلاقات جديدة أكثر تلاؤما مع تطور قوى الانتاج فى الطبيعة والمجتمع على السواء ٠

ان نظام الملكية الذى ولد النظام الطبقى فى المجتمع قد ظل يشكل ظاهرة اختلال بارزة فى توازن وتطابق هذه العلاقة بين قوى الانتاج وتطورها الذى يحققها المجتمع الانسانى على نطاق الطبيعة والمجتمع بصفة مستمرة ، وبين علاقات الانتاج الاجتماعية فى النطاق السياسى والاقتصادى ، خصوصا

وان كل المحاولات التى ظلت تبذلها هذه الطبقات من أجل تحقيق الحد الأدنى على الأقل من هذا التوافق هى محاولات يائسة للتوفيق عبثا بين وجودها هى كعامل سلبى معوق من جهة وبين قوى الانتاج الأخذة بالتطور والتقدم الايجابى من جهه أخرى حيث كانت تنتهى كل هذه المحاولات « العبثية » الى عرقلة نسبية وحقيقية أحيانا لآلية وجدلية التطور والتقدم التاريخى لقوى الانتاج من جهة والدفاع عن مصالح ووجود هذه الطبقات نفسها لبعض الوقت من جهة أخرى ، حتى يحين موعد سقوطها حتما واحتلال طبقات جديدة محلها ، هى أقل تخلفا واعاقة لتطور قوى الانتاج بحدود نسبية على نحو ما تسمح المقارنة مثلا بين الطبقة الاقطاعية فى العصور الوسطى فى أوربا كطبقة منتهيه بعد أن استنفذت كل أسباب الدفاع عن وجودها والطبقة البرجوازية فى القرن التاسع عشر كطبقة مبتدئة ٠

الا أن أى من هذه الطبقات لم يستطع ولم يستطيع تقديم الحل النهائى والحاسم الذى يوفق بين نظام الملكية والطبقات المستغلة من جهة ، والطبقات الشعبية المستغلة (بفتح الغين) أو المجتمع على الأصح الذى يجسد قوى الانتاج وحتمية تطورها المضطرد من جهة أخرى ٠ ذلك أن أساس الحل التاريخى الحاسم لهذه المشكلة والذى تؤكد عليه النظرية العلمية من أجل تحقيق التوافق والتطابق التام والمضطرد بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج لا يتمثل فى أزالة النظام الطبقى القديم بصفته خطاء وأحلال نظام طبقى جديد أقل خطأ منه على نحو ما حدث بالنسبة للاقطـــاع والبرجوازية فى أوربا ، بل أن الحل يتمثل فى أجتثاث الخطأ من أساسه والمتمثل فى وجود أدعاء الملكية الخاصة ونظم الطبقات نفسها ، بوصفها كما سبقت الاشارة لم تكن مجرد أشياء معوقة خارج التاريخ والوجود الحقيقى للمجتمع وزائدة عليه فحسب بل أنها تشكل أيضا التجسيد الفعلى لواحد من أهم أخطاء المجتمع البشرى فى نضاله الطويل وتقدمه التاريخى حتى الآن ، حيث لم يعد المجتمع الانسانى اليوم بفضل ما حققه من انتصارات حاسمة فى نطاق العلم والطبيعة والمجتمع ليعجز عن أدراك هذا الخطأ ولا يملك القدرة على أزالته ، بل لقد صار الادراك حقيقة علمية واجتماعية ، والازالة واقعا مطبقا بالنسبة لأكثر من ثلثى سكان الكرة الارضية فى المجتمعات الاشتراكية من جهة ، وحتميا بلا بديل بالنسبة لمن لا يزالون يعانون من وطئة هـــذا الخطأ فى المجتمعات الرأسمالية وتوابيعها فى البلدان النامية والمتخلفة ٠

الطبقات الشعبية المنتجة هى دائما التعبير الثورى المنسجم بين قوانين الطبيعة والمجتمع

ان الغاء نظام الملكية الخاصة بأعتباره أول خطأ تاريخى بارز فى علاقات أفراد المجتمع الانسانى سيؤدى جدليا الى الغاء نظام الطبقات المستغلة كخطأ ثانى متطفل وزائد عن المتطلبات الموضوعية للتطور الاجتماعى والتاريخى الحق للمجتمع الانسانى ، بل أنه يقوم بحكم كونه خطأ بأعاقة وتعطيل مقاييس أدائه المطلوب والمنسجم ، وتشويهه الى أبعد الحدود ، كما أن وجود ما نسميه اليوم بالطبقات الشعبية أو المنتجة الحقيقية على الأصح من عمال وفلاحين ومهنيين فى ظل علاقات جماعية متطابقة وما وصل اليه التقدم من انماط الانتاج الجماعى سيصبح وجودها بعد ذلك وجودا لا طبقى ، أى بلا أخطاء استراتيجية فى التنظيم والعلاقات الاجتماعية للانتاج وتطوره ، ووجودا ثوريا على الدوام بلا عوائق طبقية أو اجتماعية مقصودة لذاتها ٠

ويتحقق بذلك أعظم انتصار ثورى فى حياة المجتمع الانسانى وتاريخه المتمثل فى وجود هذه الطبقات المنتجة وتاريخها فقط ، باعتبار أن وجود المجتمع الانسانى ممثلا فى وجود هذه الطبقات العاملة والمنتجة ، هو الوجود المنسجم بطبيعته مع قوانين الطبيعة والتطور الشامل من جهة والذى لا يعيق أو يعرقل فاعليتها الثورية فى التطور والنمو والتحول ، على نطاق الطبيعة والمجتمع معا فحسب ، ولكنه يرتبط جدليا بهذه الفاعلية الثورية على الدوام، ويناضل بلا كلل من أجل زيادة هذه الفاعلية وتطورها أكثر فأكثر ، وضد كل الاخطاء والصعوبات والعراقيل التى تعيق مسار هذا التطور التاريخى وفاعليته الثورية لصالح الانسان وتقدمه ويزيحها أولا بأول سواء كانت فى الطبيعة أو المجتمع ، ففى مثل هذا النظام ـ كما يقول جارودى ـ لا توجد طبقة مهتمة بالمحافظة على ما هو قديم ، ولأول مرة فى التاريخ تتوافق مصالح كل فرد مع مصالح المجموع(١٨) ٠ والذى يعتبر اليوم العمل على ازالة أقدم وأخطر خطاء تاريخى فى المجتمع والمتمثل فى نظام الملكية الخاصة والطبقات المستغلة وتحقيق مجتمع اشتراكى لا طبقى هو أعظم تحد معاصر للمجتمع الانسانى فى هذه المرحلة بالذات ٠

ولقد أكد ماركس اضافة الى ما سبق بعدا آخر أكثر أهمية ، هو أن

---

(١٨) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٤٤٧ ٠

المجتمع الا طبقى الذى سيتحقق ، لن يشهد تناقضا صارخا بين الخصائص الشخصية للفرد وظروف حياتة الاجتماعية ، بل سيتمكن فيه كل فرد من تنمية قدراته الى أبعد مدى · ولن يواجه الفرد حينئذ حدودا أو قيودا الا تلك التى تفرضها عليه كينونته الطبيعية(١٩) فتصور ماركس - كما يقول بوتومورو - يعرض لنا قضية المساواة بشكل يلقا قبولا واسعا فى عالمنا المعاصر(٢٠) ·

الطبقات الشعبية المنتجة هى دائما التعبير الصحيح عن وجود المجتمع وتطوره التاريخى

ومن هنا وفى ضوء كل ما سبق تتأكد حقيقة أن الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة فى ظل المجتمع الرأسمالى أو الاقطاعى هى دائما طبقات ثورية بطبيعتها وبحكم وجودها وفاعليتها المنسجمة على الدوام مع قوانين التطور فى الطبيعة والمجتمع وان وجودها هو التجسيد الحقيقى لوجود المجتمع الانسانى نفسه وتاريخها هو تاريخه تماما ، وما عدا ذلك من التركيبات الاجتماعية المختلفة التى عرفها تاريخ المجتمع الانسانى حتى اليوم هى اما أشكال اجتماعية مكملة لهذه الطبقات وملحقة بها ، كالسلطة السياسية للدولة والجيش والفئات الاجتماعية المختلفة بما فى ذلك المثقفين الوطنيين والثوريين أنفسهم ، واما أشكال طفيلية وزائدة فرضت نفسها لبعض الوقت فى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية وتاريخية معينة لم يعد لها ما يبررها فى الوقت الحاضر على الاطلاق كالطبقات الاقطاعية والرأسمالية والبرجوازية المستغلة وفئات السماسرة والوسطاء المحليين والدوليين ·· الخ · والتى صار المنتهى منها كالعبودية والاقطاع يذكرنا بأفدح خطأ تم ارتكابه فى تاريخ المجتمع الانسانى ، الذى مضا وما تبقى منها من البرجوازية والرأسمالية والامبريالية ما يزال يذكرنا بأعظم الاخطاء والعوائق المهددة لحاضر المجتمع الانسانى ومستقبله ما لم يبادر الى استأصال جذورها المحتضرة بسرعة ·

وهكذا تتأكد أيضا حقيقة التناسب العكسى أو التناقض العكسى على الأصح بين الطبقات الشعبية المنتجة ببعدها الثورى والتقدمى والطبقات الطفيلية المستغلة ببعدها الانتهازى والرجعى المتخلف ، فكلما ازداد وعى هذه الطبقات الشعبية المنتجة وانجازها المادى والمعنوى فى الواقع أزدادت ثوريتها وايمانها بالعلم والتقدم واستجابتها لحركة التاريخ وقوانين تطوره

---

(١٩) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١٤٦ ·

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٣ :

أكثر فأكثر ، والعكس صحيح بالنسبة للطبقات الاقطاعية والبرجوازية والرأسمالية التى ما تكاد تبداء بجنى ثمار انتصارها حتى تجد نفسها مضطرة بحكم وجودها الى الوقوف فى وجه حركة التاريخ وقوانين التطور التى تسحقها بسرعة غير عابئة بصراخها · والعلة فى كل ذلك أن الطبقات الأولى وهى أوسع طبقات المجتمع المنتجة هى التى تشكل الامتداد والتجسيد الحقيقى لوجود المجتمع المنسجم مع حركة التاريخ وقوانين التطور ، أما الثانية فبحكم أقليتها فهى مجرد نشاز عارض وأشبه بالميكروب الغريب الذى يلفظه الجسم ولا يستطيع التعايش معه مهما طال الوقت ورغم ما قد يسببه من أذا كبيرا لهذا الجسم حتى يتخلص منه ·

فالهوية الثورية والتقدمية للطبقات العاملة والمنتجة هى قضية تاريخية وجدلية تستمد حقيقتها من عمق الطبيعة وقوانين المجتمع وليست مجرد مفهوم سياسى كما قد يظن البعض خطاء · ومن هنا أيضا ينبع التفسير العلمى والتاريخى لمدلول المثقفين الوطنيين والثوريين كحلفاء أوفياء وطلائع قيادية لهذه الطبقات من منظور جدلى وليس سياسى فحسب ·

نتائج واستخلاصات :

ومن خلال كل ما سبق نخلص الى مجموعة الحقائق التالية :

١ - أن الطبقات الشعبية المنتجة من عمال وفلاحين فى ظل المجتمع الاقطاعى القديم والرأسمالى الحديث هى التى تشكل دائما بعلاقاتها وفاعليتها المادية والمعنوية العامل المستقل والثابت لوجود المجتمع الحقيقى وتاريخه ومقاييس أداء حركته الجدلية والتاريخية والثورية المنسجمة مع قوانين التطور والتقدم والنمو أكثر فأكثر فى الطبيعة والمجتمع ، بينما تمثل كل الأشكال الاقتصادية والاجتماعية الأخرى المرافقة أو الموازية عوامل ثانوية تابعة فى الأساس ، وهى تكون عادة اما ذات دلالة مساعدة ومكملة لدور العامل الأساسى الأول ، كالمنظمات والاحزاب السياسية التقدمية والمؤسسات العلمية والمنجزات التكنولوجية والصناعية ، وأما ذات دلالة عرضية ومعوقة بطبيعتها ، كالملكية العقارية والرأسمالية الخاصة وما ينجم عنها من وجود فئات وأقليات طبقية طفيلية مستغلة وغير منتجة وزائدة على الوجود الطبيعى للمجتمع نفسه ، وأما ذات دلالة وظيفية مزدوجة يمكنها أن تعمل لصالح أى من الاتجاهين السابقين وفقا لقدرة أى منهما على فرض سيطرته السياسية والاقتصادية ، وذلك كجهاز السلطة السياسية والادارية والقضاء والتشريع، والتعليم والثقافة والصحافة ··· الخ ·

٢ - أن كل الأشكال الاقتصادية والاجتماعية ذات الدلالة العرضية

والسلبية المعوقة بطبيعتها لآلية التحو الجدلى والتاريخى المنسجم فى المجتمع والزائدة على مكونات وجوده الطبيعى الحق كنظام الملكية والطبقات المستغلة وما ينجم عنها من أفكار وايديولوجيات وأدوات للاستغلال والقمع ، هى دائما وفى كل مراحل تطور المجتمع البشرى تشكل مفاييس الاخطاء الممكن حدوثها دائما فى مسار الممارسة العملية والفعل الانسانى فى الطبيعة والمجتمع على حد سواء ، والتى يقوم هذا المجتمع بازاحتها والتخلص منها أولا بأول بمجرد أدراكه لها من خلال عملية الممارسة نفسها ، وهى لا تشكل قط شرطا من شروط وجود هذا المجتمع فى أى مرحلة تاريخية أو أداة انتقاله « بالضرورة » من مرحلة تاريخية لأخرى ، الا بأعتبارها خـــطأ نسبى قد يضطر المجتمع للقبول به لبعض الوقت ضمن ممارسته التاريخية · الا أن مثل هذه الاخطاء ذات الطابع الاجتماعى غالبا ما تميل بعد ذلك الى فرض نفسها على المجتمع بصفة دائمة بالقوة المباشرة وغير المباشرة ، وتحرص على ايقاف التحـول التاريخى حرصها على وجودها نفسه المشروط قانيا بعملية هذا التوقف الذى تستميت فى سبيل جعل الاستثناء قاعدة والخطأ حقيقة مطلقة ، وهى قـــد تنجح فى أعاقة وتعطيل الأداء المثالى المنسجم للتطـــور الجـدلى والتاريخى وتشويهه ، الا أنها لا تستطيع أن تثنيه أو تحل محله أو حتى تضمن بقائه المشوهة والمنحط باعتبارها مقياسا للخطـــأ فى تاريخ الممارسة البشرية للمجتمع الانسانى ·

٣ ـ ان تجاوز النظام الطبقى الناجم عن نظـــام الملكية الاقطـاعية والرأسمالية والاستحواذ على فائض قيمة عمل الآخرين بأعتباره أكثر الاخطاء شيوعا فى تاريخ الممارسة الاجتماعية حتى الآن ، لم يكن هـــذا التجاوز مشروطا قط بظرف تاريخى واجتماعى واقتصادى محدد ، كظروف المجتمع الرأسمالى ونضج التطور الصناعى فى أى مجتمع كما يظن الكثيرون ، بقدر ما أن أمكانية تجاوز مثل هذا الخطأ مرتهنة أساسا بأكتشاف وادراك أى مجتمع لهذا الخطأ نفسه الذى يكون قد وقع فيه ومباشرة النضال ضده بطريقة صحيحة ، مهما كانت طبيعة الظروف والمراحل التاريخية التى يمر بها · كما أنه لا يستلزم بالضرورة أن تقع كل المجتمعات أثناء تطورها فى مثل هذا الخطأ الفادح وتمر من خلاله بالضرورة أيضا ، أو تكرره فى حياتها على الأقل بعد أن يكون قد ثبت خطأوه فى مجتمع آخر · فالمجتمع الانسانى فى ظل النظام العبودى والاقطاعى والرأسمالى يملك فى كل الحالات فرصـا شبه متكافئة لامكانية تجاوز هذا الخطأ نهائيا فى كل الحالات السابقة اذا ما استطاع اكتشافه وباشر النضال الحازم ضده ، لأن المقولة الخاطئة التى تنزع عن العبيد والاقنان والفلاحين فى المجتمع العبودى والاقطاعى امكانية

القدرة على تجاوز هذا الخطأ وصولا الى المجتمع الاشتراكى الا طبقى ، هذه المقولة نفسها لا تقوى مطلقا على وقف هذه الامكانية وحصرها على الطبقة العاملة فى ظل المجتمع الرأسمالى فقط ولا حتى ضمان تحقيقها من خلال الوجود الفعلى لهذه الطبقة بصفة آلية ، الأمر الذى تؤكده وقائع التاريخ المعاصر • كما أن المجتمعات المشاعية القديمة التى ما تزال دلالاتها قائمة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية والتى لم تعرف نظام الملكية الخاصة والطبقات بعد ليس مشروطا عليها قط فى تطورها القادم أن تمر بهذا الخطأ أو تكرره فى حياتها بوعيها واختيارها المحض ، ما لم يفرض عليها فرضا بقوة القهر السياسى والاستعمارى القادم من الخارج والذى لم يكتفى بممارسة هذه العملية فى هذه المجتمعات من خلال وجوده المباشر فى القرون الماضية ولكنه يجتهد حتى الآن فى سبيل توليدها محليا من خلال خلق طبقات وشرائح مستغلة على النمط الرأسمالى •

٤ - أن الطبقات الشعبية المنتجة من عمال وفلاحين لا تميل الى تأكيد نفسها كطبقات حقيقية فى التكوين الاجتماعى والاقتصادى الا فى حالة اندارجها تحت سيطرة الاقليات الطبقية الطفيلية والزائدة على التكوين الاجتماعى والاقتصادى السليم للمجتمع من الاقطاع والبرجوازية والرأسمالية الغير منتجة فى الأساس ، والتى تعيش دائما على سرقة واغتصاب فائض القيمة والعمل المنتج لمجموع أفراد المجتمع المنتجين من عمال وفلاحين وغيرهم بدعوى حق الملكية العقارية والرأسمالية الخاصة ، وتستمد وجودها نفسه من خلال ذلك ، وأنه بمجرد أن يكتشف المجتمع وطبقاته الشعبية المنتجة ويدرك أمر هذا الادعاء الكاذب والسرقة المكشوفة ويناضل ضده بحزم فى أى لحظة من لحظات تطوره أو يحول دون وقوعه منذ البداية ، فانه بذلك لا يكون قد قام بتصحيح أفدح خطأ اجتماعى فى تاريخ الممارسة البشرية بالقضاء على النظام الطبقى فحسب ولكنه يكون بذلك قد حقق أعلى درجات الانسجام والتطابق بين قوانين الطبيعة والمجتمع وبناء المجتمع الاشتراكى الا طبقى الذى تتحقق فيه أعلا مقاييس الأداء الايجابى للتقدم الانسانى بلا عوائق ، وتزول معه كل أشكال الظلم واستغلال الانسان لأخيه الانسان•

٥ - ان الحقيقة الموضوعية التى غالبا ما غابت عن تقديرات معظم الدارسين والمحللين هى أن الحجم الفعلى لأفراد الطبقة الاقطاعية فى مجتمع تقليدى أو الرأسمالية والبرجوازية فى مجتمع صناعى لا يتجاوز عادة الـ ٥٪ الى ١٠٪ فى أحسن الأحوال ، انهم - كما يقول لينين - آلاف ضد ملايين(٢٠) • وان هذه النسبة اذا ما قورنت بالحجم الحقيقى

(٢٠ مكرر) راجع لينين : الى الفلاحين الفقراء ، دار القدم ، موسكو ، ص ١٨ •

للوجود الاجتماعى فانها تصبح غير ذات دلالة موضوعية يبنى عليها فى تفسير المجتمع وتطوره وتكوينه الحقيقى الا باعتبارها شـــذوذا واستثناء سلبيا لا يختلف فى حقيقته وكمه وكيفه وتأثيره عن بقية الشواذ الاجتماعية الاخرى فى حياة أى مجتمع ، كجماعات اللصـــوص ومحترفى التزوير والسطو والجريمة ٠٠ الخ أو حتى المعتوهين والمصابين بالامراض العقلية والنفسية ، والتى لا يبنى عليها أى اعتبار منطقى أو علمى فى تفسير حقائق التاريخ والتطور وقوانينه الاجتماعية الا باعتبارها كذلك شواذا اجتماعية منحرفة وظواهر عرضية وباثيولـوجية مؤقته ومشروط وجودهـــا بوجود ظروف اقتصادية واجتماعية معينة وتزول بزوالها ٠ ولو جاز لنا ان نحكم خطاء بضرورة قرأة التاريخ والتطور وننتظر استمرار صنعه وتقدمه من خلال هذه الجماعات الاقطاعية والبرجوازية والرأسمالية فان الامر يستلزم وبالضرورة أن نضع فى نفس المستوى جماعات الانحراف والنصب والسطو والقرصنة العادية ٠٠ الخ والتى لا تختلف عن جماعات المرابين والضاربين والاحتكاريين الذين تتكون منهم الجماعات الاقطاعية والبرجـــوازية والرأسمالية فى شىء الا من حيث ان هذه الأخيرة قد استطاعت أن تتفوق على غيرها وتفرض نفسها وفكرها وسلطتها وسلوكها المنحرف على غيرها من الجماعات وعلى الحياة العامة بأسرها وارادات أن تجعل من كل ذلك قانونا للطبيعة وشريعة للمجتمع وتوقف كل حركة فى الطبيعة والمجتمع عند هذا الانحراف المشوه والاكذوبة السافرة بلا خجل ٠

٦ ـ أن فئة المثقفين الوطنيين والثوريين فى ضوء كل ما سبق لا يمنحون المجتمع وطبقاته الشعبية المنتجة فكرها وأيديولوجيتها الثورية المنسجمة وقوانين الجدل والتطور التاريخى فى الطبيعة والمجتمع ولكنهم على العكس من ذلك يستمدون هذا الفكر والايدولوجية الثورية من هذه الطبقات نفسهـــا باعتباره سمة تاريخية ملازمة لها وجزء لا يتجزء من وجودها الحقيقى الحر ، ويعبرون عن هذا الفكر الثورى ويعكسونه بصورة أكثر تنظيما وارتقاءا وميلا الى التجريد النظرى ، باعتبارهم طليعة مرتبطة بهذه الطبقات وجزء لا يتجزء منها ، لا بأعتبارهم صفوة أو طبقة مستقلة عنها ، فوجود مثل هذه الفئة الثورية المثقفة مرتهن ومشروط بقائه واستمراره بوجود هذه الطبقات وارتباطه بها وليس العكس أبدا ٠ وكـل ذلك من أجـــل تحقيق المجتمع الاشتراكى الا طبقى الذى تتحقق فيه أعلا درجات التطابق والانسجام بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج من جهة ويزول معه ظلم واستغلال الانسان لأخيه الانسان كما سبقت الاشارة من جهة أخرى ٠

وبعد : الا يكون من الواضح الآن أننا قد أخـــذنا من الاستطرادات والتفاصيل فى توضيح الهوية التاريخية الايجابية للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة وعلاقاتها بالطبقات الأخرى أكثر مما ينبغى بالنسبة لهذه الدراسة التى تتركز أساسا حول فئة المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة والمثقفين الوطنيين والثوريين منهم بالذات والذين يشكلون الطليعة والحليف الأول للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة من عمال وفلاحين والمعبرين عن مصالحها ، بل والجزء الذى لا يتجزء منها كما سبق وأن أوضحت ؟

أنا لا أخفى ذلك بل ولا أخفى أننى قد قصدت اليه قصدا رغم المشقـة المضنية فى الحديث عنه ، الا أن دافعى فى ذلك وعزائى فيه أيضا هو أننى حرصت بلا حدود بأن لا أكتفى باطلاق الحكم والبديهة التاريخية وحدها بالنسبة للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة باعتبارها المقياس الحقيقى لفاعلية التاريخ والتطور الايجابى فيه ورمز الوجود الفعلى للمجتمع نفســه ، وان ما عداها من التشكيلات الاجتماعية الأخرى التى عرفتها المجتمعات البشرية حتى الآن هى اما كيانات هامشية ملحقة بها ومكملة لنشاطها ، واما أنهــا أشكال خارج التاريخ والتطور وزائدة عليه ، وعامل أعاقة وتعطيل نسبى لمقاييس أدائه الفعال ٠

الفصل التاسع

المثقفون الوطنيون : تركيبهم وطبيعة دورهم الطبقى

مدخـــل :

قد يتساءل البعض هنـا عن سبب اختيارنا لهـذا الطراز من المثقفين الوطنيين بالذات للحديث عنهم وعن طبيعة الأسس والمفاهيم الموضوعيـــة والعلمية التى يرتكز عليها وجودهم فى المجتمع ؟ ولماذا لم نتحدث بتفصيل أكثر عن أسس ومفاهيم المثقفين الرأسماليين أو الاقطاعيين أو الرجعيين مادام الواقع يؤكد بأن لكل طبقة من الطبقـــات الرئيسية فى المجتمع مثقفيها ومنظريها المعبرين عن مصالحها والدفاع عنها ؟؟

والرد على هذا التساؤل يمكن الحصـول عليه باختصار ومن خـــلال الملاحظات الآتية :

١ ـ أن المفهوم الذى كان وما يزال شائعا حول كلمـــة « مثقف » أو مثقفين فى البلدان المتخلفة والتى نحن بصدد البحث عنها قد حظيت عـلى الدوام بهالة من الاحترام والتقدير واقترنت فى أذهان الناس بالأمل فى التغيير نحو الأفضل بلا نقاش ، بل لقد مالت كلمة « مثقف » أو متعلم حسب المفهوم الشائع لأن تكون مرادفة لكلمة « مرشد » أو منفذ أو مصلح تماما بصفة مطلقة ودونما أى تمييز بين مثقف وآخر أو متعلم وآخر ·

٢ ـ أن كل المتعلمين والمثقفين فى هذه المجتمعات بصفة عامة ومنذ نشأتهم الحديثة وحتى وقت قريب قد افترضوا فى أنفسهم جميعا المفهوم السابق وساهموا بحدة فى تكوينه لدى الرأى العـــام فى مجتمعاتهم رغم تناقضاتهم الطبقية وانتمائهم الفكرية والسياسية المختلفة ، وذلك على نحو ما سبق تحليله فى أماكن سابقة من هذا البحث ·

٣ ـ أن أهمية الحديث عن المثقفين الوطنيين والتقدميين تنبع من واقع كونهم يختلفون جذريا عن غيرهم من مثقفى الطبقات الاقطاعية والاوليجاركية

المسيطرة والذين ما يزالون بنوع من التصرف والسلوك الانتهازى يصرون على اخفاء هويتهم الحقيقية تحت مظلة الشعارات الوطنية المألوفة ، مستفيدين بالمفهوم التقليدى الشائع فى الأوساط العـامة لمعنى « المثقف أو المتعلم » ويقفون منهم على طرفى نقيض ٠

٤ ـ أن الحديث عن هذه الفئة بالذات من المثقفين الوطنيين ومحاولة تحديد ماهيتها ودورها هو اضافة الى كونه تصحيح لكل الاخطاء السابقة يشكل التزاما أدبيا وعلميا بمبدأ البحث والعلم فى خدمة المجتمع وتقدمه وحـل مشاكله بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، باعتبار أنهم هم الحلفاء الحقيقيون لحركة التحديث والتقدم الحقيقى للطبقات الشعبية والفقيرة فى البلدان النامية فى نضالها ضد القهر والظلم والاستغلال الطبقى فى الداخـل والتبعية الاقتصادية والسياسية للخارج من جهة ، وبناء مجتمع انسانى حر ومتقدم خالى من الظلم واستغلال الانسان لأخيه الانسان من جهة أخرى ٠

ذلك أن أحدث المناقشات فى حقل علم الاجتماع المعاصر قد أثبتت ـ كما يقول الدكتور محمد الجوهرى ـ أن دارس المجتمع لا يستطيع اليوم أن يتصدى لمعالجة أى جانب من جوانب الحياة فى مجتمعه دون أن يتسلح بموقف نظرى واضح يهديه ويرشده ويحفظه من الوقوع فريسـة الزيف والتضليل الذى يمكن أن توقعه فيه نظريات أو مواقف سابقة فى دراسة المجتمع(١) ٠

الأسس والمفاهيم الموضوعية للمثقفين الوطنيين

نحن لا ندعى هنا بأننا نبدع مفاهيم ومضامين جديدة أو نخلقها من العدم بالنسبة لفئة أو شريحة المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة، كما أننا لسنا هنا بصدد اصدار تعاليم ونصائح أو مواعظ أدبية وأخلاقية لما يجب أن يتحلا به المثقف الوطنى من صفات ومميزات شخصية وأخلاقية على غرار ما يفعله المتصوفون فى التعامل مع اتباعهم ومريديهم ، وأرباب العائلات فى التعامل مع صغارهم ٠٠٠ الخ ٠ بقدر ما أننا نحرص فى فقرات هذا الفصل على بلورة الخصوصيات والمميزات الاجتماعية والموضوعية البحته للمثقفين الوطنيين على وجه التحديد ، وطبيعة المهام التاريخية والاجتماعيـة

---

١) د٠ محمد الجوهرى ، علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العـالم الثالث ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩ ٠

المنوطة بهم فى نطاق المجتمع الذى ينتمون اليه على أسس علمية وفى ضوء كل التحليلات السابقة ومن خلال مجريات الأحداث ووقائعها العملية ٠

حيث يمكن تلخيص أهم هذه الأسس والمضامين المرتبطة جوهريا بالمدلول العلمى لمعنى المثقفين الوطنيين كأدوات تعبيرية وطليعية تقدمية واعية فى نضال الطبقات الشعبية المؤمنة بالتحول نحو الأفضل ، وتتمثل فى أهمية الوعى بالذات وتقدير حدود مهامهم ودورهم فى سياق النضـــال الطبقى والتحولات الاجتماعية والتاريخية فى مجتمع متخلف وصولا الى مجتمع متطور ومتقدم من جهة ، وفى العمل بالآخرين ومعهم بصدق وتواضع وليس العمل من أجلهم بغرور من جهة ثانية ، وفى الاختيار الوطنى والثورى الناجز بغير تسويف أو مغالطة من جهة ثالثة ، ثم الاعتماد على الواقع وخصوصياته وامكانياته الذاتية كعامل حاسم واستراتيجى بالدرجة الأولى من جهة رابعة ، وأخيرا التركيز على « ثقافة الوعى » بدلا من « وعى الثقافة » ونظرا لما لهذه الأسس والمفاهيم من أهمية بالغة فى تقديرنا فسنقوم بتناول كل منها بشىء من التفصيل والتحليل فى مجمل الصفحات التالية من هذا الفصل ٠

أولا : أهمية الوعى بالذات وطبيعة المهام

أقصد بأهمية الوعى بالذات بالنسبة للمثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة هو ضرورة توفر الوعى بوضوح وموضوعية بطبيعة مهمتهم الاجتماعية والطبقية وحدودها تجاه الواقع المتخلف من جهة وتبلور الوعى والادراك الذاتى لهذه المهمة فى نفوسهم من جهة أخرى ٠ فمهمة الوعى بالذات تتمثل بالنسبة للمثقفين الوطنيين فى أهمية أدراك كونهم مجرد فئة أو شريحة اجتماعية لا يتجاوز دورها ولا يختلف تركيبها عن أى فئة اجتماعية أخرى فى المجتمع ، بما فى ذلك فئات المثقفين غير الوطنيين ، الا من حيث طبيعة الدور ونوع المهمة التى سنتحدث عنها بعد قليل ، فهم ليسوا فئة مستقلة عن الطبقات ، وليسوا طبقة فوق كل الطبقات ، ولا يملكون تفويضا مطلقا للتحدث عن الطبقات والدفاع عنها أو الهجوم على طبقات أخرى بمفردهم ، كما أنهم عاجزون بطبيعتهم عن القيام بذلك مهما ظنوا فى أنفسهم أو خدعتهم الظروف المحيطة أحيانا ، وهم كذلك أيضا شأنهم شـــأن غيرهم من الفئات والجماعات الهامشية الأخرى لا يتجاوز حقيقة تكوينهم الذاتى كمجرد تعبير أولى واعى ومنظم الى هذا الحد أو ذاك عن مصالح اجتماعية وطبقية محددة هم جزء لا يتجزاء منها ، أما بحكم أصولهم الاجتماعية والطبقية ، أو انتمآتهم وقناعاتهم الفكرية والسياسية الصادقـــة ، أو بكلا الأمرين معا ، بل أنهم

شأنهم شأن غيرهم من الفئات الأخرى وبالرغم مما يعلنونه من تشيعهم القوى لأصولهم وانتمائتهم الطبقية والسياسية والفكرية المعبرة عنها ، فأنهم هم أقل أجزاء هذه الطبقات التى ينتمون اليها ويعبرون عن مصالحها استقرارا وثباتا فى مواقعهم وأكثر تعرضا للتغير والانحراف السريـــع الى مواقف وانتمآت طبقية وسياسية أخرى هامشية أو موازية بل ومضادة فى كثير من الأحيان ٠

هذا من حيث الاطار النظرى والاجتماعى الشامل لتكوينهم الذاتى الذى لا يختلف فيه واقعهم ودورهم عن أية فئة أو جماعة هـــامشية أخرى فى المجتمع ، الا من حيث النسبة ودرجة الفاعلية والتأثير الذى يتمتعون به أكثر من غيرهم ٠ أما من حيث نوعية وكيفية الدور والمهمة المنوطة بوجودهم كمثقفين وطنيين ، والذى يتميزون به دون غـــيرهم من الفئات والجماعات الأخرى ، فهى تنبع من طبيعة انتمائهم للطبقات القاعدية فى المجتمع ، من فلاحين وعمال وبرجوازية وطنية صغيرة ، وتمثلهم لمصالحها الطبقية ومفاهيمها الوطنية والايديولوجية فى مواجهة الطبقات المسيطرة من الاقطاع والكمبرادور المحلى والدولى فى المجتمعات النامية والمتخلفة ، ويشكلون طليعتها المتقدمة ونقاط التماس والتصادم الأولى بين هذه الطبقات القاعدية الوطنية والثورية التقدمية بطبيعتها مع غيرها من الطبقات الاقطـــاعية والرجعية القـديمة أو البرجوازية والكمبرادورية المستغلة المعاصرة ٠

أما وقد أعطينا لهذه الحقيقة التاريخية والعلمية كل أبعادها ومضامينها الضرورية اللازمة سلفا ، فان ما يتبقى لنا فى هذه النقطة بالذات بالنسبة للمثقفين الوطنيين والثوريين وطبيعة مهمتهم ودورهم بالنسبة لتلك الطبقات الشعبية العاملة والمنتجة والتى تملك وحدها مفاتيح حركة التاريخ والتطور باعتبارهم يشكلون دائما طليعة نضالها التاريخى وأدوات التعبير عن مصالحها السياسية والاقتصـــادية ، فهو التأكيد على مجمـــل الحقـائق التاريخية والاجتماعية الآتية :

١ ــ ان المهمة الأســاسية والمبــاشرة للمثقفين الوطنيين والثــوريين بالنسبة للطبقات الشعبية من عمال وفلاحين ومنتجين والتى ينتمون اليهـا بحكم وجودهم الاجتماعى أو قناعاتهم الفكرية والسياسية الصادقة تتمثل فى العمل على بلورة وعيها التاريخى بحقيقة وجودها وطبيعة دورها وما تملكه من أمكانيات هائلة فى صنع التطور دون سواها فى ضوء ما سبق تحليله ، وتبصيرها بكل التفسيرات والمفاهيم الفاسدة والمضللـة الأخرى التى غالبا

ما تستغل ضد المصالح الحقيقية لهذه الطبقـــات وأحباط دورها التاريخى وعرقلته ، وصولا الى المزيد من قهرها واستغلال جهدها لصالح القلة من الطبقات والفئات الاقطاعية والرأسمالية الطفيلية القادمة من خارج التاريخ ، والتى كانت وما تزال فى جزء كبير من العالم تفرض نفسها عليه وتحاول أجباره على السير فى الاتجاه المضاد لحركته الطبيعية ٠

ومسئلة الترابط بين دور المثقفين الثوريين بالنسبة لطبقات الشغيلة والمنتجين على هذا النحـــو لم يكن مسئلة خيارية ، ولكنه ترابـط جدلى بالضرورة ٠ فالوعى الاشتراكى الديمقراطى - كما يقول لينين - لا يمكن للعمال أن يحصلوا عليه الا من خارجهم ولنا فى تاريخ جميع البلدان شاهد على أن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تكتسب بقـــواها الخاصة غير الوعى « التردديونيونى » أى الاقتناع بضرورة الانضمام فى نقابات والنضال ضد أصحاب الأعمال ومطالبة الحكومة بأصدار هذه أو تلك من القوانين الضرورية للعمال ٠٠٠ الخ ٠ أما التعـاليم الاشتراكية فقـــد أنبثقت عن النظريات الفلسفية والتاريخية التى وضعها المتعلمون من ممتلى الطبقات المالكة ،وضعها المثقفون(٢) ٠

٢ - أن الطبقـات الشـعبية العاملة والمنتجـة فى عموميتها قد فرض عليها عبر مراحل التاريخ ألوان من القهر والاستغلال السياسى والاقتصادى من جهة ، وأجبرت على تذوق أفكار ومفاهيم خرافية واسطورية وعنصريـة وميتافيزيقية فاسدة منذ زمن طويل من قبل الفئات والطبقات المسيطرة من جهة أخرى ، أدت مجتمعة الى الانحطاط بقيمها الانسانية ودورها التاريخى ، وأفسدت وعيها المادى والعقلى وتماسكها الاجتماعى ووحدتها الطبقية الى هذا الحد أو ذاك ٠

فهذه الطبقات الشعبية فى المجتمعات الرأسمالية وتوابعها فى البلدان النامية والمتخلفة على وجه التحديد هى اليوم فى أمس الحاجة الى ادراك كل هذه الحقائق والوعى الكامل بها ، كمدخل ضرورى لا بديل عنه فى نضالها الحالى ضد الفئات والطبقات المستغلة لها وضد كل أشكال التخلف القائم ، ويجب أن لا نأخذ بوجهة النظر الطوباوية - كما يقول لينين - والتى تزعم أن الجماهير الكادحـــة مهيئة للمجتمع الاشتراكى(٣) ٠ لأن طليعة المثقفين

---

(٢) لينين - ماركس - انجلز : الماركسية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٦٢ و ١٦٣ ٠
(٣) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، ص ١٥٢ ٠

الوطنيين والثوريين هى المخولة جدليا وتاريخيا للقيام بهذا الدور المهيىء للجماهير الكادحة لكى تقوم ببناء المجتمع الاشتراكى ٠

كما أن لينين قد أشار أيضا الى كلمات « كاوتسكى » التى قالها بصدد مشروع البرنامج الجديد للحزب الاشتراكى الديمقراطى النمسوى فى هذا الصدد وصفها بالعمق والصدق والتى جاء فيها : ان العلم الاقتصادى الحديث هو شرط من شروط الانتاج الاشتراكى ، شأنه مثلا ، شأن التكتيك الحديث سواء بسواء ، وان البروليتاريا بالرغم من كل رغبتها ، لا تستطيع أن تخلق لا هذا ولا ذاك ، فكلاهما ينشأ عن التطور الاجتماعى الحديث ، فالعلم ليس بيد البروليتاريا بل بيد المثقفين البرجوازيين ، فالاشتراكية الحديثة نفسها قد أنبثقت هى أيضا فى رؤوس بعض أعضاء هذه الفئة ، وقد نقلها هؤلاء الى أكثر البروليتاريين تطورا من الناحية الفكرية ، الذين أخذو بعد ذلك يدخلونها فى نضال البروليتاريا الطبقى حيث تسمح الظروف ٠ وعلى ذلك كان الوعى الاشتراكى عنصرا يؤخذ من الخارج وينقل الى نضال البروليتاريا الطبقى ، لا شيئا ينبثق منه بصورة عفوية(٤) ٠

وبالرغم من وضوح هذا الطرح من قبل « كاوتسكى » واهتمام لينين به الى هذا الحد الا أن نمط التحليل لا يخلو فى تقديرنا من نزعة برجوازية صغيرة لدى « كاوتسكى » ، وسوء فهم للعلاقة الجدلية بين الفكر والواقع الى حد ما ، ففكرة أن البروليتاريا لا تستطيع أن تخلق العلم الاقتصادى ولا التكنيك الحديث وان من يملكون ذلك هم المثقفون البرجوازيون فقط ، بما فى ذلك الاشتراكية نفسها والذين يقومون بتقديم كل ذلك لنضال البروليتاريا فيما يشبه « الهبات أو العطايا » فان هذا هو الفهم البرجوازى الكبير والخاطىء لدى كاوتسكى، ذلك أنه اذا كان كاوتسكى يعترف فى نفس النص بأن التكنيك الحديث والعلم الاقتصادى قد نشأ عن التطور الاجتماعى الحديث ، فمن الذى أنجز هذا التطور نفسه ؟ هل هم المثقفون البرجوازيون أم البروليتاريا ؟ ، فالبروليتاريين وكل الشغيلة هم الذين ينفذون التحول والتطور الحقيقى فى الواقع ، ومن واقع هذا التحول وممارساته وانجازاته اليومية ينبثق العلم الاقتصادى والتكنولوجى وكل المفاهيم النظرية ، والتى يضطلع بها المثقفون سواء أن كانوا رأسماليين أو برجوازيين أو ثوريين كشراح ومنظرين وموجهين ، كل وما يتناسب وخدمة مصالح طبقته التى ينتمى اليها ، واذا

---

(٤) لينين ـ ماركس ، انجلز : الماركسية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٧٣ و ١٧٤ ٠

كان البروليتاريون لا يستطيعون أن يتمتعون بمثل هـــذا الوعى أو الفهم النظرى فذلك أمر لا يجردهم قط من حقهم فى صنعة ومن كونهم وما يعملون هم الواقع الاجتماعى والمادى الذى يعكس كل الأفكار النظرية ويشـــكل مصدرها الأول بما فيها كل أفكار المثقفين على اختلاف مذاهبهم · وعلى ذلك فان الوعى الاشتراكى لم يكن عنصرا مأخوذا من الخارج وينقل الى نضـــال البروليتاريا الطبقى كما يقول كاوتسكى ، ولكنه انعكاسا له وتعبيرا عنه ، عن طريق المثقفين الثوريين والتقدميين الذين هم حلفاء لـــكل البروليتاريين والكادحين والجزء الذى لا يتجزأ من وجـــودهم الطبقى والتاريخى ، وليس المثقفين البرجوازيين والرأسماليين والاقطاعيين الذين يقومون بمهام معادية للبروليتاريا تعبيرا عن مصالح طبقاتهم القائمة على استغلال الطبقات المنتجة·

٣ - ان المثقفين الوطنيين والثوريين هم المخولون وحدهم تاريخيا للقيام بهذه المهمة الحيوية ، مهمة بلورة وتعميق الوعى الطبقى والتاريخى فى الواقع الاجتماعى حتى يتسلح به ويناضل هو بالدرجة الأولى من خلاله وفى ضوئه ضد كل أشكال قهره وتخلفه السائد · وليس مجرد العلم به وتداول المفاهيم النظرية المجردة والمشوهة أحيانا بمعزل تام عن الواقع والطبقات الاجتماعية صاحبة الشأن وذات المصلحة الحقيقية فى الوعى به ، وتلك هى النقطـــة الأساسية فيما قصدنا اليه فى بداية هذه الفقرة من أهمية الوعى بالذات بالنسبة للمثقفين الثوريين وطبيعة مهمتهم الاجتماعية والتاريخية فى نطاق الطبقات التى ينتمون اليها بحكم النشأة والقناعة ، والتى يمكن تلخيصها أيضا فى عبارة العمل بالآخرين ومعهم أساسا وليس من أجلهم وبمعزل عنهم من خلال المقولات النظرية المجردة للاشتراكية ·

ذلك أن الثقافة البروليتارية - كما يقول لينين - لم تنبثق من مكان مجهول ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن أنفسهم أنهم اختصاصيون فى ميدان الثقافة البروليتارية ، كل ذلك سخف وهراء ، ينبغى أن تكون الثقافة البروليتارية هى التطور المنطقى لمجمل المعارف التى صاغتها الانسانية تحت نير المجتمع الرأسمالى ومجتمع الملاكين العقاريين ، والمجتمع الدواوينى(٥) ·

اضافة الى كون هؤلاء المثقفين ليســـوا طبقة فوق الطبقات ولا هم مفوضون أو قادرون على القيام بأى مهمة بمفردهم نيابة عنها ، ولا هم بأقدر

---

(٥) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٢٢ ·

منها على الصمود والنضال الحقيقى من أجل انتصارها الحاسم ، ذلك أنهم بالرغم من أهمية دورهم الطليعى الهام بالنسبة لهذه الطبقات فانهم لا يعدو كونهم مجرد التعبير الهامشى عنها فحسب ، بل وأكثر حلقات تكوينها ضعفا وعرضة للخطأ والانحراف دائما ٠

ثانيا : الاختيارات الثورية الناجزة

اذا كنا قد أوضحنا فى الفقرة السابقة طبيعة المهمة المنوطة بفئة المثقفين الوطنيين داخل طبقاتهم الاجتماعية ، والمتمثلة فى بلورة وتعميق الوعى الطبقى والتاريخى بين صفوفها حتى تتسلح به وتناضل هى من خلاله وفى ضوئه ضد كل أشكال قهرها وتخلفها السائد ، وان تناضل بالآخرين ومعهم أساسا وليس من أجلهم فحسب ، الا اننا نود أن نتطرق فى هذه الفقرة الى « الكيفيات » التى ينبغى أن يتم من خلالها أداء هذه المهمة من قبل المثقفين الثوريين تجاه واقعهم الاجتماعى والطبقى فى البلدان النامية والمتخلفة بالذات فى الوقت الحاضر ، والى أى مدى هى منسجمة ومتطابقة موقفهم ونضالهم مع ما يتيحه الواقع الاجتماعى والتاريخى الراهن من الامكانيات الحقيقية للنضال والتطور ٠

وحتى نتمكن من تحقيق رؤية حسنة وموضوعية لهذه القضية الهامة لا بد من العودة قليلا الى مرحلة تاريخية معينة ، وهى مرحلة بداية ونشوء هذه الشريحة الجديدة من المثقفين الوطنيين والثوريين فى البلدان النامية والمتخلفة وهى ما تزال قريبة العهد جدا وربما أنها لم تغادر وقتنا الحاضر بعد ، وهو الأمر الذى سبقت الاشارة اليه فى مكان سابق من هذه الدراسة٠ وعلى ذلك فانه بالرغم من صدق التوجهات المبدئية والنظرية لدى هذه الفئة من المثقفين الوطنيين والثوريين واختيارها الطبقى والثورى الناجز كأطار عام لمهمتها النظرية الا أن الكيفيات والمواقف العملية لأداء هذه المهمة والتى لا مكان فيها للخيارات الشخصية والحلول الجزئية الوسيطة ، ما تزال عرضة لمثل هذه المحاكمات والخيارات الشخصية أو السياسية الجزئية والمراهنة على بعض الحلول الوسطية والتكتيكية المريضة ٠

(أ) حذر الاستقطاب السياسى

فكثير من المثقفين الصادقين يتهيبون - بحكم خبرتهم التاريخية والنضالية المحدودة - الاختيار الثورى الناجز ويراهنون عادة على بعض الحلول الجزئية والهامشية للواقع الاجتماعى ، لا بأعتبار ذلك أجراء تكتيكى

مشروع فى سبيل الاختيار الثورى الناجز بل بأعتبارها مداخل استراتيجية فى نظرهم للوصول الى الحل النهائى ، وذلك على نحو ما يحدث مثلا من عمليات الأستقطاب الاجتماعى والسياسى الواسع النطاق فى صفوف الحركة الوطنية المنظمة لعناصر وفئات اجتماعية ذات مصـــالح وانتماءات وأصول طبقية واجتماعية مختلفة بل ومتناقضة ومعادية بطبيعتها للخط الوطنى ، لا كمجرد تكتيك مشروع بل كمدخل استراتيجى للوصول الى الحل الاجتماعى المطلوب من خلال هذه العناصر ، وذلك تحت وطئة بعض المشاعر التربوية الخاطئة أحيانا والمبالغة فى دور قانون التحول أحيانا كثيرة ، كالتبرير الخاطىء مثلا لمحدودية وضعف الوعى الطبقى المطـــلوب فى مجتمع متخلف لـــدى الفئات والطبقات الشعبية من أجل أنجاز حل اجتماعى وسياسى عاجل من جهـــة والمبالغة المسرفة لقانون التحول الاجتماعى لبعض العناصر الاجتماعية ذات المصالح والأصول الطبقية اللاوطنية واللاثورية ، والمراهنة من خلال هـــذه المبررات الخاطئة فى التصور والمبالغات المسرفة فى التحول على ورقة خاسرة من أجل تحقيق الحل الثورى الناجز ٠

فلقد حذر لينين من المراهنة على تحول مثقفى الاقطاع والبرجوازية الرأسمالية القدامى حتى فى عهد الاشتراكية ، وأشـــار الى امكانية الاستفادة منهم وليس الاعتماد عليهم، مؤكدا على حقيقة أن هؤلاء المثقفين ليسوا اشتراكيى الميل ولن يكونوا أبدا شيوعى الميل ، وان سير الأحداث هو الذى يحملهم على التزام موقف الحياد والمراوغة ، كما يؤكد قائلا : أننا لن نستند أبدا الى المثقفين بل سنستند فقط الى طليعة البروليتاريا التى تجر ورائهـــا جميع البروليتاريين وجميع الفلاحين الفقراء(٦) ٠

فاذا صح الافتراض الأول القـــائل بمحدودية وضعف الوعى الطبقى المطلوب فى مجتمع متخلف لانجاز حل سياسى واجتماعى عاجل ، وهو ما لا نختلف عليه كثيرا ، الا أن معالجة هذه القضية وحلهـــا يتركز أساسا فى النضال والكدح المضنى داخل صفوف الطبقات العاملة والمنتجة نفسها لتنمية وعيها والبحث عن عناصر طليعية ثورية صلبة من أوساطها مباشرة لمواجهـــة ذلك الضعف والمحدودية فى الوعى الطبقى وسد نقصه كما وكيفا ، وليس فى البحث عن محامين وأدعياء للقيام بهذه المهمة من أوساط طبقات وفئات معادية أخرى كقضية استراتيجية ، لأن ذلك لن يسهم قط فى تنمية الوعى

---

(٦) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ٣١ ٠

الطبقى والحل الاجتماعى الناجز ، بقدر ما سيسهم فى تنمية وعى وثقافة الطبقات والفئات الا وطنية القديمة والمعادية ، ويمكنها من الاطلاع على خطط وطموحات القوى الثورية الجـديدة وييسر لها ضربهـا وعرقلة مسيرتها التاريخية ، والدلائل الواقعية على هذا الأمر لا تخفى فى كل المجتمعات(٧) ٠

كما أن المبالغة المسرفة فى قانون التحول على نحو ما سبق تحت أى مبرر هو انحراف واضح بالقانون التاريخى والاجتماعى لتفسير الطبقات وعلاقاتها ببعضها ويحول القاعدة فى هذا القانون الى استثناء والاستثناء الى قاعدة ،الأمر الذى تطبل له النظريات الامبريالية والرجعية فى تفسير الطبقات على نحو ما ذكرنا فى مكان سابق من هذه الدراسة ، مع اختلاف الصيغة لا أكثر ٠

(ب) العمل فى نطاق الطبقات المقهورة وليس المسيطرة

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان القوى الوطنية والثورية وبدافع من سوء فهمها للاختيار الثورى الناجز أيضا غالبا ما تميل الى تحديد مهامها النضالية وأهدافها الوطنية والتقدمية على أسس غير تاريخية وغير طبقية ناجزة ، حيث تقوم بدلا من ذلك بتحديد مهامها وأهدافها فى ضوء الموازنات السياسية والدبلوماسية البحته فى الواقع الاجتماعى المتخلف ، وتبدوا وكما لو كانت مجرد طرف من الأطراف السياسية القـائمة يتميز بوجهة نظر خاصة قد تختلف أو تتفق الى هذا الحد أو ذاك مع بقية الأطراف السياسية الأخرى ، حيث تبدو وهى أشبه ما تكون بأقلية سياسية أو طائفية داخـل برلمان برجوازى متقدم أو على هامش مجتمع اقطاعى متخلف ، قانعة بمجرد الاعتراف بوجودها كأفراد يجوز لهم التفكير تجاه أنفسهم فقط كما يشاؤن ولا دخل لهم بمجريات الواقع اطلاقا ما داموا أقلية سياسية أو طائفيـة بمعنى ما ، وما داموا يحرصون على مجرد الابقاء على حياتهم كاشخاص ، خصوصا وأن الكثير من العناصر الوطنية والمثقفين الثوريين يقبلون بمثل هذا الاختيار الخاطىء تحت تأثير قناعات خاطئة أيضا ، قوامها أنهم ما يزالون أقلية وطنية بالفعل فى مقابل أغلبية رجعية من جهة ولأنهم ما يزالون فى دور التكوين وفى مرحلة البداية من جهة أخرى ، وان الحصـول على مثل تلك

---

(٧) ان انقلاب الخامس من نوفمبر فى شمال الوطن ومحاولة انقلاب الـ ٢٠ من مارس فى جنوب الوطن خلال عامى ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كما سبقت الاشارة فى مكان سابق من هذا البحث يعدان أبرز دليل على ذلك ٠

المطالب المحدودة من الطبقات المسيطرة في مجتمع برجـــوازى أو اقطاعى متخلف هو الخطوة الأولى نحو خطوات أكثر على هذا الطريق حتى النهاية ٠

وهم فى سبيل ذلك يقبلـــون كثيرا ببعض الاجراءات الاصلاحية والتغييرات البرجوازية الشـــكلية التى تقدم عليها السلطة الاقطاعية أو البرجوازية من أجل تطوير مصالحها هى ، باعتبارها جزء من الانجاز الوطنى الموهوم الذى يراهنون عليه ويدافعون عنه بحرارة ، ويكونون فى هذه الحالة أشبه بمن يريد الوصول الى سطح القمة بالهبوط من أعلى بدلا من الصعود من أسفل ، وتبدوا مسئلة اختيار الحل الثورى الناجز بالنسبة لهم وكما لو كانت غير ممكنة فى الوقت الحاضر ولم يحن وقتها بعد ، بل ولا يدرون أو يتصورون متى سيحين وقتها بالضبط ، وانما يتركون كل ذلك للظروف ، ان لم يـكن لعـلم الغيب ، مكتفين بالتضخيم والنفخ فى بعض الاجـــراءات والاصلاحات الشكلية التى قد تتخذها الطبقات المستغلة المسيطرة من وقت لآخر دفاعا عن نفسها ومصالحها التى تتعرض للانهيار من وقت لآخر وليس حبا فى ايجاد تحول حقيقى فى المجتمع كما يتصور بعض أولئك المثقفين الطيبين خطاء ٠

مأساة هذا الفهم والاختيار الوطنى الخاطىء للمثقفين الوطنيين والثوريين فى نضالهم هو أنه أولا : يفصلهم عن أبعادهم الاجتماعية والطبقية الشعبية فى صميم الواقع الاجتماعى ، ويعزلهم عنها كلية ، باعتبار انها هى الأرضية الاجتماعية والتاريخية التى لا يستمدون منها كل مقومات نضالهم وقوتهم فحسب بل ووجودهم نفســـه ، كمثقفين وطنيين وثوريين ٠ وهو ثانيا : يجعلهم – بدلا من ذلك – يناضلون كأفراد أو كأقلية سياسية داخل الطبقات المسيطرة التى يسهل عليها محاصرتهم وابتلاع فاعليتهم الحقيقية جماعات وأفرادا خلال وقت قصير ، حيث يصيرون فى أحسن الأحوال مجرد طرف سياسى لبرالى متشدد ومحدود على هامش الحياة السياسية والاجتماعيـــة القائمة ، تستفيد منه أكثر مما تخشاه ، لأنها (أى الطبقات البرجوازيـة والاقطاعية المسيطرة) تجد فى وجوده ورقة رابحة فى المناورات السياسية ، ومسحوق رائع لتجميل وجهها القبيح من وقت لآخر ، وذلك على نحو ما يفعل « سايس الأسود » حينما يستعرض مهارته وشطارته فى القدرة على كسب مودتها وصداقتها له وهو يضع يده أو رأسه بين فكيها دون أن توقع به أى اذا أمام جميع المشاهدين الذين لا يعلمون أنه قد قام باقتلاع أظافرها وخلع أسنانها قبل ذلك ، وقام بترويضها على القيام ببعض الحركات البهلوانية بوعى منها أو بدونه ٠

(ج) الفهم الدقيق للتناقضات الأولية والثانوية

وهناك نمط ثالث من الخيارات الخاطئة التى يقع فيها المثقفون الوطنيون فى نضالهم الوطنى والذى لم يكن هو الخيار الأخير من هذا النوع الذى يضاف الى ما قبله ، بقدر ما أنه آخر نموذج نستدل به على نوع الخيارات الخاطئة فى نضال المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة بالذات ، وهو نموذج أكثر سوءا وأسواء حظا من مجرد الاستقطاب الكمى للمثقفين الوطنيين من خارج الطبقات العاملة والمنتجة ، أو مجرد النضال السياسى والدبلوماسى البحت للمثقفين الوطنيين وحدهم داخل الطبقات البرجوازية والاقطاعية المسيطرة بمعزل عن الواقع الاجتماعى والتاريخى على نحو ما سبق الحديث عنه ، لأن هذا النموذج يقتصر غالبا على بعض الفصائل السياسية للمثقفين الوطنيين وشبه الوطنيين ممن لا يزال تكوينهم الفكرى والثقافى يطفح بالروح البرجوازية الصغيرة ومجرد الحماس القومى الفج ٠

حيث أنه بالرغم مما يتحلا به مثل هؤلاء المثقفين من تمثل أفضل للواقع الاجتماعى والتعامل معه عن قرب ، الا أنهم أسواء حظا من غيرهم فى القدرة على فهمه على أسس جدلية وتاريخية صحيحة ، حيث لا يختارون أهدافهم وأسلوب نضالهم نتيجة لذلك على أسس مثالية فحسب بل أنهم يسيئون فهم التناقضات الطبقية والاجتماعية القائمة اسآت قاتلة ، ويخلطون بينها خلطا مميتا الى حد العجز الصارخ عن تصور الشكل الهرمى للمجتمع المتخلف وعلاقاته الطبقية والتمييز بين ما هو أولى وثانوى فيها وما هو استراتيجى وتكتيكى فى صراعاتها وتناقضاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية أيضا ٠

الأمر الذى يجعلهم فى كثير من الأحيان يظنون بل ويعتقدون بحزم بأن الطريق الى تحقيق الحل الاجتماعى الناجز ـ والمصاب لديهم هو أيضا بكثير من التشوهات البرجوازية ـ لا يأتى بالضرورة من خلال تقوية التحالف الاجتماعى والسياسى بين الطبقات والفئات ذات المصلحة الحقيقية فى أنجاز مثل هذا الحل مجتمعة ، بل يكفى وجود اختلاف جزئى أو ثانوى داخل هذا التحالف فى الاجتهادات أو وجهات النظر التفصيلية ليجيزوا لأنفسهم لا مجرد العمل بمفردهم والحكم الأحمق المشبع بالجهالة على مثل هذا الاختلاف الاجرائى بأنه تناقض تاريخى لا رجعة فيه ويتوجب عليهم تصفية الحساب معه أولا فحسب ، بل أن هذا الفهم يدفعهم الى المراهنة الساذجة على اقامة تحالفات مع قوى متخلفة وشبه متخلفة من أجل الوصول الى ما يريدون بمفردهم ، فيما يشبه عملية اللعب بالورق أو تحريك قطع الشطرنج ، بين

طرفين غير متكافئين تماما ، يشكلون هم دائما الطرف الأضعف الذى يخسر النتيجة دائما وحتما ، والواقع العربى يستطيع أن يقدم لنا الكثير من الوقائع والأمثلة الخاصة بهذا الطراز من الاختيار الخاطىء لنضـــال بعض المثقفين الوطنيين وشبه الوطنيين(٨) .

وفى ضوء كل ما سبق نستطيع أن نستخلص أو نؤكد على ثلاث نقاط رئيسية وهى :

١ ـ أن الاختيار الثورى والجذرى الناجز لحل المشكلة الاجتماعيـة والاقتصادية برمتها فى مجتمع متخلف كان وما يزال وسيظل حتما هـــو القضية التى لا خيار فيها ولا تقبل التجزئة أو المساومة أطـــلاقا بالنسبة للطبقات الشعبية العاملة والمنتجة فى مواجهة الطبقات المسيطرة والمستغلة وكل أشكال القهر والتخـــلف السائد ، وان المثقفين الوطنيين والثوريين باعتبارهم طليعة قيادية فى نضال هذه الطبقات والمعبرين عن لسان حالها لا بد وأن يدركوا أبعاد هذه القضية التاريخية أساسا ولا يخرجوا عنها ، لأنهم هم أيضا لا يملكون الخيار فى ذلك ما داموا صـــادقين وجادين فى الانتماء لهذه الطبقات ومشاركتها فى الدفاع عن مصالحها ، وانه بمقدار ما يتعمق وعيهم فى ادراك هذه القضية وغيرها من القضايا الجوهرية فى النضال الوطنى ويلتزمون بها بمقدار ما يقوون على المحافظة على وجودهم نفسه كمثقفين ثوريين منتمين لطبقات ثورية وتقدمية بطبيعتها ، وبقدر ما يقوون أيضا على تخليص أنفسهم من كل المفاهيم والرواسب المثالية والبرجوازية والاقطاعية القديمة التى ما تزال تسحب نفسها على الـكثير من تصرفاتهم ومواقفهم بالطرق المباشرة وغير المباشرة ، وبوعى منهم أو بدونه على نحو ما سبقت الاشارة اليه . فاذا جاز أعتبار الحل الثورى الناجز مسئلة خيار ممكنة بالنسبة للمثقفين كشريحة طبقية هامشية ، الا أن مسألة القبول به من عدمه هو أمر مشروط جوهريا بمسألة وجودهم نفسه كمثقفين ثوريين أو العكس تماما ولا توسط فى ذلك ، أما بالنسبة للطبقات الشعبية العاملة والمنتجـة فان هذه القضية هى جزء لا يتجزأ من وجودها وتاريخها الذى لا خيار فيه على الاطلاق .

٢ ـ أما النقطة الثانية وهى مرتبطة بما قبلها ولا تقل أهمية عنها فانها

---

(٨) والحركة الناصرية فى السنوات الأخيرة فى اليمن وخارج اليمن تقدم بكل مفاهيمها وطموحاتها وتصرفاتها أبرز دليل على ذلك .

تتعلق بالكيفيات الموصلة الى انجاز الحل الثورى للمشكلة الاجتماعية وتحقيقه، ذلك أن اختيار الحل الثورى الناجز والالتزام به هو بالنسبة للمثقفين الثوريين قضية نظرية وأيديولوجية ومسألة ادراك وفهم علمى لقوانين الطبيعة والمجتمع فى المقام الأول ، أما مسألة تطبيقها والتوصل الى استنفاذ أقصى حدود فاعليتها الايجابية فى تحويل الواقع وتطويره تطويرا ثوريا فأنها تصبح مسألة نضال كيفية بحته تخضع لمختلف الظروف والأوضاع وتتشكل بتشكلها من مجتمع لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى ٠

وبناء على ذلك فان كل الامكانيات والوسائل بل والخصوصيات المتاحة فى الواقع والتى من شأنها أن تخدم الحل الاجتماعى الناجز وتقرب منه بصورة أو بأخرى لا يصبح من صميم الشرعية الثورية استخدامها والأخذ بها فحسب بل أنها ومهما كانت محدودة أو قليلة العائد السريع تشكل المدخل التاريخى الوحيد والحاسم لتحريك الواقع المتخلف ضد نفسه ، وفى ذلك يكمن جوهر التحول الاجتماعى وعوامل الانتصار التاريخى الحاسم بغير بديل ٠

٣ - وهنا وفى هذه النقطة بالذات تكمن أهمية الادراك الدقيق للخيط الرفيع والشفاف الذى يفصل دائما فى مثل هذه الأمور بين القضايا النظرية العامة والخصوصيات الذاتية من جهة والقضايا المرحلية التكتيكية من جهة ثانية والقضايا الاستراتيجية من جهة ثالثة ، والذى ما يزال هذا الخيط الرفيع الشفاف بالنسبة لطلائع النظام الوطنى والثورى من مثقفى البلدان النامية والمتخلفة بالذات اما متضخما بحجم الحائط السميك المعتم الذى يحجب الرؤية الحسنة تماما ، أو أنه غير موجود البته ، وحتى لو وجد كمفهوم نظرى الا أنه يكون من الصعوبة بمكان أن يتمكن المثقفون الوطنيون فى بلد متخلف حتى الآن من تحديد موقعه الصحيح بالضبط وكيفية استخدامه من وقت لآخر ومن مرحلة لأخرى ٠ وتلك هى أولى المهام الاستراتيجية العاجلة فى الوقت الحاضر والتى تقتضى منهم ادراك أن كل أدوات وكيفيات النضال ضد كل أشكال القهر والتخلف فى أوطانهم وصولا الى تحقيق الحل الثورى والتاريخى الناجز ، هى خصوصيات وسمات محلية ووطنية فى ٨٠٪ من مجموعها ويجب استقراؤها من الواقع الاجتماعى وطبيعة تكوينه من خلال التعامل معه والعيش فى صميمه والوعى الناضج به ، كما أن القدرة على ترتيب أولويات أدوات النضال وكيفياته التى يفرزها الواقع وحسن استخدامها والتميز بين ما هو أولى وثانوى منها واستراتيجى وتكتيكى فيها ، فى ضوء رؤية جدلية وتاريخية ناضجة وبعيدة المدى ،

لهو أصعب ما فى الأمر كله ، ومع ذلك فانه لا مفر منه ولا بديل غيره .

ثالثا : الاعتماد على الواقع وخصوصياته الذاتية

ربما يقودنا آخر تعبير فى الفقرة السابقة والخاص بأن ٨٠٪ من أدوات وكيفيات النضال هى ذات سمات وخصوصيات محلية ووطنية ويجب استقراؤها من الواقع الاجتماعى وطبيعة تكوينه ، ربما يقود هذا التعبير الى الحديث عن قضية بكاملها ، وهى ليست القدرة على ترتيب الأولويات المحلية فى النضال وحسن استخدامها تكتيكا واستراتيجية فحسب بل والقدرة على التعرف بدقة على هذه الأولويات نفسها فى صميم الواقع الذاتى والموضوعى، واستخراج الحسابات الدقيقة لفاعلية العوامل والخصوصيات الذاتية والوطنية البحته فى النضال من جهة ، وبقية العوامل الخارجية والدولية بل والاممية بصفة عامة من جهة أخرى . فهذه الحسبة أو المعادلة التاريخية الهامة قد كانت وما تزال حتى الآن تعيسة الحظ فى فهم وتصور طلائع المثقفين الوطنيين فى البلدان المتخلفة ، والتى بالرغم من تذكرهم لها جيدا فى الأدبيات النظرية البحته الا أنه لا يوجد لها موضع قدم حقيقى تقريبا من الناحية العملية والموضوعية الا فيما ندر حتى الآن ، والنادر لا حكم له كما يقال .

نحن هنا لا نريد أن نقلل أو نتجاهل الحقائق التاريخية والاقتصادية والتكنولوجية الراهنة والتى تسير بخطى سريعة نحو تكامل المجتمعات الحديثة واخضاعها لتنظيم وتكامل دولى وأممى لا مفر منه كظاهرة تاريخية ومادية ، الا أن الأمر يجب أن لا يكون مجرد قضية تبسيطية هكذا الى حد السذاجة ، وليس مجرد امتداد سياسى واقتصادى ورغبة البعض فى التسلط على البعض الآخر ، على غرار ما كان يحدث فى الامبراطوريات القديمة . كما يجب ألا نغفل الحقيقة السياسية التى تدور من خلالها الصراعات المحلية والدولية بين القوى الامبريالية والاستعمارية الجديدة فى المجتمع الرأسمالى وحلفائها من الكمبرادوريين والاقطاعيين وكل القوى الرجعية المتخلفة فى الشعوب النامية من جهة ، والقوى الوطنية والتقدمية فى هذه الشعوب وحلفائها التاريخيين فى المنظومة الاشتراكية من الجهة الأخرى ، وأنه اذا كان من المستحيل العثور على صيغة للتوفيق أو التعايش بين المصالح الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية لكلا الطرفين فان نفس المصالح لكل طرف على حدة هى غير قابلة للتجزئة أو الانفصال تحت مختلف الظروف ، فتلك بديهيات اجتماعية وتاريخية عامة مفروغ منها وهى تؤكد نفسها بمرور الوقت أكثر فأكثر .

وما نحرص على تأكيده هنا هو أن هـــذه العموميات النظرية لم تكن لتكتسب أهميتها وصدقها العلمي والموضوعي الا من خـلال تراكم جزئياتها العملية ، وأن هـــذه الجزئيات التي تتعـــدد وتختلف أشكالها ومميزاتها وخصوصياتها من مجتمع لآخر ومن مرحلة تاريخية لأخرى ، لهي المقياس الحقيقي لصدق الرؤية النظرية الشاملة ومصدر قوتها الأول وتجدد حيويتها بلا انقطـــاع • فالممارســات العمـــلية المؤدية الى ادراك العوامل الذاتية والخصوصيات الاجتماعية والتاريخية لأى مجتمع ، لم تكن هي المنظار الذى يجب أن نقرأ من خلاله وفي ضوئه كل المفاهيم النظرية العامة فحسب بل ان فيهـا تكمن العوامل الجوهرية والاستراتيجية في التغيـير ، وعلى أساسها يتوقف الانتصـار الحاسم لارادة التحول التـاريخي والثورى قبل أى شيء آخر ، ومن خلالها أيضا تستمد المفاهيم النظرية مضامين وأبعاد جديدة أكثر شمولا ونقاوة وحيوية بلا انقطاع ، اننـــا نقرأ النظرية ونصيغها في ضوء الوقائع والخصوصيات الجزئية المتراكمة ومن خلالها وليس العكس ، وأن من يطمح في حل ثورى ناجـز دون الانطلاق من المميزات والخصـوصيات والعوامل الذاتية والاعتماد عليها بالدرجة الأولى هو أشبه بمن يحلم بقطف ثمار طيبة من شجرة ميتة لا جذور لها في الأرض ، وأنه اذا كان صدق المقولة التاريخية القائلة بأنه لا حـــركة ثورية بدون نظرية ثورية ما يزال حتميا فاننا نستطيع أن نضيف أيضا بأنه لا انتصـار ثورى بدون منطلقات ذاتية وموضوعية •

ولهذا كان من فادح الخطأ ــ كما يقول لينين ــ الاقتصار على استيعاب ما هو وارد في الكتب ••• فبدون عمل ، بدون نضال ليست ثمة أية قيمة للمعرفة التي تستقى عن الشـــيوعية والاشتراكية في الكتب والمؤلفات ، اذ أنها ليست ســـوى استمرار للقطيعة السابقة بين النظـرية والتطبيق العملي ، هـــذه القطيعة التي هي أكره سمة من سمات المجتمع البرجوازى القديم(٩) • واذا كانت مثل هـــذه القضية هي من الأمور التي قد لا نجد من يختلف عليها معنـا في أوسـاط المثقفين الوطنيين من الناحية النظرية على الأقل ، الا أننا لا نذيع سرا ولا نتعدى محذورا اذا قلنا بأن هؤلاء المثقفين الوطنيين أيضا في البلدان النـــامية والمتخلفة ــ وهم قليلون ــ لا يتجاوز قبولهم وتأكيدهم على أهمية الممارسة العملية والعوامل والخصوصيات الذاتية في نضال مجتمعاتهم حدود الاقرار والفهم النظرى وحده ، ولا يتعدى مكان

---

(٩) لينين : في الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١١٨ •

هذه القضية فى حياتهم فى معظم الأحيـــان حدود المقولات والصيغ الأدبية أو المفاهيم المدرسية الساذجة ، وذلـك على غرار ما لاحظناه بوضوح أكثر بالنســـبة للمثقفين اليمنيين فى فصل سابق من هـــذه الدراسة ، حيث لا يتجاوز فهم هـــذه القضية التـاريخية والجدلية فى أذهان الـكثير منهم أو غيرهم فى البلاد النامية بصفة عامة أكثر من القول أو العـلم بأن الجزر البريطانية تقع فى القارة الأوربية ، أو أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل أربعة وعشرون ساعة أو أن النار تحرق الحطب، أو أن زيد ضرب عمرو ..الخ.

رغم أن هذه القضية الهامة هى زاد الحيـاة النضالية ومنحها وطعامها اليومى الذى لا يتجزأ ولا ينفصل عن حياة الناس وهمومهم اليومية أيضا ، وهى من باب أولى لا بد وأن تكون كذلك بالنسبة لكل مثقف وطنى وثورى ، لأن المثقف الوطنى الجيـــد - كما يقول عبد الفتاح اسماعيل - هو المثقف الأممى الجيد(٩) . وذلك بدلا من التعامل معهـا كما يتعامل تلاميذ المدارس الأولية مع واجباتهم اليومية المقررة على نحو ما أشرنا آنفا ، حيث ما تزال هذه الثغرة الخطرة تتجسد فى حياة هؤلاء المثقفين من خلال مظاهر عدة وتستمد وجودها ومقوماتها فى حياتهم من خلال عوامل وأسباب اجتماعية وتاريخية مختلفة ما تزال تفرض نفسها عليهم بالطرق المباشرة وغير المباشرة ، والتى سنتناولها فى فقرة لاحقة من هذا البحث .

رابعا - التأكيد على ثقـافة الوعى بدلا من وعى الثقافة

والقضية الرابعة والأخيرة التى نود مناقشتها هنـا كأداة من أدوات اكتساب المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة لمضامين وأبعاد أكثر علمية وموضوعية وثورية هى ضرورة اهتمامهم وتركيزهم على ما نطلق عليه هنا أو نعرفه - ربما لأول مرة - « بثقافة الوعى » بدلا من « وعى الثقافة » ، وحتى نتمكن من مناقشة هذين المصطلحين عن ثقافة الوعى ووعى الثقـافة وأهمية المصطلح الأول بالنســـبة للمثقفين الوطنيين وعمليـــات التحـول الاجتماعى بصفة عامة ، بصورة أكثر وضوحا وموضوعية ، دعونا أولا نحدد ماهية واطار كل من هذين المصطلحين ومضمونه وعلاقة كل منهمـا بالآخـر وذلك على النحو الآتى :

(٩ مكرر) عبدالفتاح اسماعيل : كتابات مختـــارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفارابى بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٧٥ .

أ - الفرق بين ثقافة الوعى ووعى الثقافة

نستطيع القول بأن وعى الثقافة يتمثل فيما يكتسبه الفرد المتعلم والمثقف بالذات من مدارك ومعارف ثقافية مختلفة عن الحياة العامة فى المجتمع سواء ما ينسجم منها مع حقيقة موقفه الاجتماعى والطبقى الخاص ويخدم هذا الموقف أم لا ، فالمام ومعرفة المثقف الوطنى والثورى بثقافة الطبقة الاقطاعية والعناصر الرجعية وغيرها من النماذج المختلفة لثقافة المجتمع القومى الى جانب ادراكه لثقافته الوطنية أساسا يمكن تصور هذه العملية باعتبار أنها تشكل بالضبط « وعى الثقافة » ، أى تمكن الفرد المتعلم أو المثقف من معرفة وادراك مجمل عناصر الثقافة السائدة فى المجتمع والوعى بها على اختلاف مضامينها وبحدود نسبية على الأقل ، الى جانب نموذجه الثقافى الخاص بحكم انتمائه الطبقى والأيديولوجى .

وهنا لابد وأن نلاحظ أن وعى الثقافة هو خاصية من خواص المثقفين على مختلف انتمآتهم السياسية والطبقية ولم يكن خاصية طبقية شاملة فى المجتمع ، وعلى العكس من ذلك فيما يتعلق بمفهوم « ثقافة الوعى » الذى يتمثل فى ادراك الطبقة الاجتماعية (أى طبقة فى المجتمع) ووعيها بثقافتها الخاصة المعبرة عن مصالحها وهمومها وطموحاتها وعلاقاتها الاجتماعية ، دون أن تتعداها كثيرا الى الالمام بثقافة الطبقات الأخرى الا فى حدود لا تذكر. ذلك أن وجود الطبقة ليس مشروطا حتى بوجود وعيها وثقافتها الخاصة ولا مقترنا به ، عوضا عن المامها بثقافة الطبقات الأخرى . فكثير من الطبقات قد توجد على نطاق واسع فى كل مجتمع ، ووجود أى مجتمع مشروط بوجودها أصلا ، الا أنها قد لا تتمتع الا بحدود دنيا من الوعى بوجودها ، أو وعيها الطبقى على الأصح ، عوضا عن عدم تبلور وازدهار ثقافة هذا الوعى نفسه داخل هذه الطبقة وتعرضه للانحطاط الشديد فى كثير من الأحيان ، خصوصا فيما يتعلق بالطبقات الشعبية المسحوقة من عمال وفلاحين ومستخدمين وغيرهم فى المجتمعات الاقطاعية المتخلفة ، حيث يحول وضع الطبقة الاقطاعية المسيطرة القائم على أسس ومفاهيم ميتافيزيقية متخلفة دون تبلور الوعى الطبقى والثقافة الطبقية بصفة عامة على أسس منطقية وعقلية صحيحة ، بل ان هذه الطبقة تعمل بوعى تام على الحيلولة دون حدوث مثل هذا التبلور لثقافة الوعى الطبقى السليم وفرض ثقافتها ووعيها المشوه دائما .

وحتى فى ظل المجتمعات البرجوازية وشبه البرجوازية حيث تقوم هذه الطبقات المسيطرة بوعى كامل لمصالحها وثقافتها على الحيلولة دون تبلور

الوعى الطبقى لدى الطبقات الدنيا والخوف منه ، ولا تسمح بازدهار ثقافتها الطبقية أيضا ، الا ما يتم رغم ارادتها · فوعى الثقافة مسألة نظرية وجزئية تخص المثقفين وحدهم أما ثقافة الوعى فهى مسألة اجتماعية وطبقية شاملة ·

ب ـ ضمان التحول يكمن فى ثقافة الوعى وليس فى وعى الثقافة

ومن هنا تتأكد الأهمية المطلقة لبلورة وتنمية ثقافة الوعى الطبقى فى أوساط الطبقات العمالية والفلاحية فى البلدان النامية والمتخلفة وحلفائهم من برجوازية صغيرة وجنود ومستخدمين وصغار المواطنين والطلبة ··· الخ· ذلك أن تبلور الوعى الطبقى أيضا لدى طبقات أوسع الجماهير فى المجتمع لهو أعظم دلالات التحول وأفضل ضمانات الانتصار التاريخى الحاسم لقضيتها من جهة ، وهو أعظم ما يخيف ويزعج الطبقات والفئات المعادية أكثر من أى شىء آخر · ذلك أن تخلف الوعى الطبقى لدى البروليتاريا الزراعية ـ كما يقول مجموعة من الباحثين السوفييت المحدثين ـ يلقى مسئولية ضخمة على عاتق القوى التقدمية المناضلة فى سبيل التحولات الديمقراطية فى البلدان النامية ، وتطرح أمام الطليعة الثورية مهمة بالغة الصعوبة والأهمية ـ مهمة تسليح الفئات الريفية البروليتارية بالوعى الطبقى الثورى ـ ذلك لأن هذه الفئات تشكل أكبر قاعدة جماهيرية لاعادة بناء المجتمع اجتماعيا واقتصاديا على أسس غير رأسمالية(١٠) ·

فالطبقات الرجعية والبرجوازية الكمبرادورية فى البلدان النامية والمتخلفة لا يخيفها وجود جماعات من المثقفين الوطنيين والثوريين وحتى المتطرفين الذين يعون ويدركون ما تفعله هذه الطبقات من استغلال وتفريط بالسيادة الوطنية لصالح الاحتكارات الدولية والامبريالية واعلان معارضتها لذلك فى نطاق التعبير السياسى وأدبيات الثقافة النظرية العامة والخاصة ، بقدر ما يخيفها ويقلقها جدا أن يتحول هذا الفعل الى ظاهرة اجتماعية ووعى وثقافة طبقية شاملة يتجاوز حدود الجماعات المثقفة المحدودة الى أوساط الطبقات الشعبية المستغلة (بفتح الغين) نفسها والقادرة وحدها على ايجاد التحول الجذرى والثورى العميق اذا ما امتلكت وعيها المعبر عن واقعها الطبقى والاجتماعى بطريقة صحيحة ·

فثقافة الوعى بهذا المعنى لا تشكل الضمان التاريخى الحاسم لتحقيق التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التقدمية الناجزة فحسب

---

(١٠) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٤٩٦ ·

فى أى مجتمع ، ولكنها تشكل من باب أولى التجسيد المادى والعملى لتطابق المفاهيم النظرية مع الممارسات العملية وترابط حركة الفكر بحركة الواقع بالمعنى الجدلى الواسع لهذه القضية فيما يتعلق بمسألة الصراعات والتناقضات الطبقية فى المجتمع وتصعيد أدائها وفاعليتها أكثر فأكثر كمدخل استراتيجى **لتصعيد حركة التغيير والتطور الشامل** ٠

أما وعى الثقافة بالمعنى الذى سبقت الاشارة اليه قبل قليل باعتباره خاصية فردية أو فئوية مكتسبة فى الغالب ولم يكن خاصية طبقية شاملة وأصيلة ، فهو وان كان من مهمته حقا أن يلعب دور المهىء والمنشط والمثير الحقيقى لثقافة الوعى الطبقى وتبلوره الا أنه لا يقوى مطلقا بمفرده على القيام بمهمته كاملة أو تقديم نفسه كبديل عنه ٠ وهنا تكمن أهمية ادراك المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة بالذات لهذه المعادلة العلمية الصعبة ومعرفة دورهم فيها ، باعتبار أن وجودهم يشكل تجسيدا لوعى الثقافة وليس لثقافة الوعى ، من جهة وأن نضالهم الثورى لا يتجسد من خلال وعيهم الثقافى بقدر ما يتجسد من خلال بلورتهم واثارتهم لثقافة الوعى الطبقى بين أوسع الجماهير الشعبية وتسليحها به وقيادتها من خلاله من جهة أخرى ٠

أسباب عجز المثقفين الوطنيين عن القيام بمهامهم السابقة حتى الآن

كانت تلك هى مجموعة الأسس والمبادىء العامة المتعلقة بأهمية الوعى بالذات ، والاختيار الثورى الناجز ، والاعتماد على الواقع وخصوصياته وامكانياته الذاتية ثم الاعتماد على ثقافة الوعى بدلا من وعى الثقافة لهى الأبعاد الاجتماعية والسياسية التى تحدد بدقة المهام التاريخية لفئة المثقفين الوطنيين والتقدميين فى المجتمعات النامية والمتخلفة،وكيف أن عدم قدرة هؤلاء المثقفين على القيام بهذه المهام حتى الآن ، ما يزال يشكل نقطة ضعف خطيرة ومميتة فى بعض الأحيان ، لا بالنسبة لهؤلاء المثقفين فحسب ، بل وبالنسبة لمسألة النضال الطبقى والتحرر الاجتماعى والاقتصادى بالنسبة لجماهير الشعب فى هذه المجتمعات بصفة عامة ، والذى ما يزال متعثرا وعاجزا عن الوقوف على قدميه لنفس السبب ولنفس العلة ، (عجز المثقفين عن ادراك مهامهم التاريخية وأدائها بطريقة صحيحة) ٠

وهنا سيتوجب علينا البحث عن **الأسباب الكامنة وراء هذه القضية** والكشف عنها حتى يمكننا تحديد امكانية التغلب عليها وتجاوزها كضرورة تاريخية ومسألة مصيرية لا محيد عنها ، حيث تتمثل أهم هذه الأسباب فى مجموعة من العوامل التى يأتى فى مقدمتها :

١ - قلة الخبرة النضالية والمراس العملي

اذا ما تذكرنا ما سبقت الاشارة اليه فى مكان سابق من هذه الدراسة حول النشأة المتأخرة جدا لفئة المثقفين الوطنيين والثوريين فى البلدان النامية والتى ما تـزال كذلك فى طور التكوين لأدركنا جيـدا أن خبرة النضـال والممارسة الثورية التقـدمية الحقة ذات البعد الجدلى والتاريخى الناضج ما تزال متواضعة حقـا بالقياس الى موروثهم الـكبير من الأفكار والممارسات اللبرالية والبرجوازية الصغيرة والمثالية والقومية ، والتى ما تزال تسحب نفسها عليهم بطريقة غير مباشرة ، بالرغم من صدق توجههم الجديد ورغبتهم فى التخلص من كل الأفكار المعلقة القديمة ٠

فهذا الموروث المتراكم من الأفكار السياسية والاقتصادية المغتربة عن الواقع لا يلغيها مجرد الاعلان عن صدق التوجه والفهم الجديـد والرغبـة فى التخلص من القديم ، لأن المثقفين الوطنيين والثوريين سوف لن يتمكنوا من تخليص أنفسهم منها نهائيا الا عن طريق تصعيد النضال اليومى وتكثيف الممارسة العملية فى صميم الواقع وتنمية الخبرات النضـالية والتقـدمية البديلة من خلال كل ذلك ٠

فتكثيف النضـال الوطنى فى صميم الواقع وتراكمه من خلاله على أسس علمية وبصبر وتواضع وبلا غرور سوف لن يكون هو الحل الحاسم لتجاوز كل ما نرغب فى تجاوزه من أفكار ومواقف تقليدية وتنمية مواقف وخبرات ثورية جديدة أكثر تقدما فحسب ، بل ان ذلك هو المدخل الأساسى لاكتشاف العوامل الذاتيـة والموضـوعية فى الواقع وامكانياتهـا الرهيبة والحاسمة المتـاحة ، ويقضى الى الأبد على حالة الاغتراب والانفصـام الدائم والخطير بين المفاهيم النظرية العامة والواقع العملىوخصوصياته ، الذى يعانى منه المثقفون الوطنيون والثوريون فى البلدان النامية والمتخلفـة وتفصل بينهم وبينه سحب كثيفة من الجهل المخيف للواقع والمقـرون بالغـرور والأنانية ازاءه أحيانا ، والافتقار الى صدق التضحية الوطنية والثورية الحقة من أجله أحيانا كثيرة ، مكتفين بدلا من ذلك باجادة الصيغ والأدبيات النظرية العـامة والدوران فى محيطها ، الأمر الذى ينتهى بهم فى كثير من الأحيـان الى تصـور المشـاكل والحلول وكما لو كانت أمور نظرية بحتة وسياسية ودبلوماسية فى أحسن الأحوال ، ولم تكن قضـايا تاريخية واجتمـاعية فى الأساس ٠

فلو كانت دراسة الاشتراكية والشيوعية - كما يقول لينين - تنحصر

فى استيعاب ما هو وارد فى الكتب والكراريس والمؤلفات الشيوعية لأنتجنا بفـــائق السهولة شراحا سطحيين شيوعيين أو مدعين مغرورين شيوعيين ، الأمر الذى يسىء الينا فى غالب الأحيان ويلحق بنا الأذى ، لأن هؤلاء القوم الذين تعلموا وقرأوا ما فى الكتب والكراريس الشيوعية يظهرون عاجزين عن تنسيق جميع هـــذه المعارف ولا يستطيعون التصرف والعمل كما تقتضيه الشيوعية فعلا(١١) ٠

وهذه الثغرة الخطرة هى التى - فى تقديرنا - جعلت من جهود كثير من المثقفين التقدميين البارزين بل وبعض الأحزاب والمنظمات التقدمية أيضا فى البلدان النامية تتحول الى مجرد قوالب وأدبيات نظرية جامدة ، لم تؤثر فى واقعها الاجتماعى والقومى أو تغير منه شيئا ، رغم تقادمها الطويل بالنسبة لكثير من الحركات القومية واللبرالية التى ظلت تحـرك الواقع ، بمفاهيمها وأبعادها الخاصة وتنتقل به من مرحلة لأخرى ، كما تنتقـل بنفسها أيضـا الى مواقع أكثر نضجا وتقدما فى كثير من الحالات ، بينما ظلت جهود المثقفين اليســاريين الأوائل وتنظيماتهم وأحزابهم وما زالت فى البلدان الناميـــة والمتخلفة مجرد دوائر سياسية ضيقة وحلقـــات مغلقة للقـراءة والتـداول النظرى ، وتبـــدو كما لو كانت غير ذات ارتبـاط حقيقى يذكر بواقعهـا الاجتماعى ، أو ذات مسئولية محددة من أى نوع ٠

والأمثلة التى تؤكد هذه الوقائع كثيرة وماثلة للعيان فى أكثر من مكان من العالم النامى والمتخلف ، فالحزب الشيوعى الهندى مثلا يعتبر من أقدم الأحزاب اليسارية والتقدمية ،ولكن الحركة اللبرالية القومية «للمهاتما غاندى» وجواهر لال نهرو لم تترك موضع قدم يذكر فى الواقـع الاجتماعى لتيـار اليسار التقدمى السابق ، أو أن هذا التيار - على الأصح - لم يستطع أن ينتزع لنفســه موضع قدم يذكر فى واقع الحيـــاة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع الهندى حتى الآن للأسباب الآنفة الذكر ، رغم اخفاق الخط القومى اللبرالى السابق فى حل المسألة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الهندى ، بل وعجزه حتى عن المحافظة على السلطة السياسية التى ظل يمارسها بزهو واعتداد قومى ومثالى بعـــد رحيل الاستعمار لفترة غير قصيرة ليجد نفسه فى الأخير مجبرا بطريقة أو بأخرى على مغـادرة السلطة السياسية ليفسح المجـــال أمام الطبقات والفئات الرأسمالية والاقطـــاعية والأرستقراطيات

---

(١١) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١١٧ ٠

الاجتماعية والدينية التى تشكل الاطار السياسى المناسب للواقع الاقتصادى والاجتماعى والمتطابق معه فى الوقت الحاضر ٠

حيث صار « كلب ديسـاى » فوق سيارته هو التعبـير الصحيح عن الواقع بدلا من « معزة غاندى » تحت الشجرة(١٢) كل هذا يحدث وما يزال بينما لم يكن يتجـاوز دور اليسار التقدمى أو « الحزب الشيوعى الهنـدى على الأصح » أكثر من مجرد البحث عن الاعتراف به كطرف سياسى ومذهبى فى بعض الولايات الهنـــدية ، ضمن مئـــات الأطراف والمذاهب السياسية والاجتماعية والدينية التى تشتهر بها الهند منذ القدم وحتى الآن ٠

واذا راجعنا الصورة مرة أخـرى فى مصر فسنجدها تتكرر بشـكل أوضح منذ بداية الخمسينات وحتى اليـــوم ، حيث أنه بالرغم من عراقة التنظيمات اليسارية فى مصر وعمق ثقافة أفرادها الا أنها قد ظلت تسـير فى تناسب شبه عكسى مع مجريات الأحداث القومية والبرجوازية الصغيرة التى شهدتهـا مصر فى ظل قيـــادة عبدالناصر وعكست نفسها على الوطن العربى وكثـــير من المجتمعات الافريقية والآسيوية الأخـرى ، حيث تحول الشيوعيون فى مصر من منظمات سياسية الى مجرد أفراد مثقفين جيدا على المستوى النظرى ٠

وفى اليمن وجد نموذج من نماذج الامتداد القومى لمصر والوطن العربى ككل ، ووجدت عناصر يسارية وشيوعية منظمة ومحدودة فى نطـاق بعض المثقفين منـــذ وقت مبكر فى بداية الأربعينات ، وهو زمن سـباق بالنسبة للمنظمات القومية واللبرالية اللاحقة كحركة القوميين العـرب وحزب البعث العـــربى الاشتراكى وتنظيم الضباط الأحـرار الذى فجر أحـــداث ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، والحركة الناصرية التى تبلورت أكثر بعـــد وفاة عبدالناصر ، وغير ذلك من المنظمات السرية ، حيث نجد أن كل هذه المنظمات القـــومية واللبرالية والبرجوازية الصـغيرة كانت تقف وراء كل الأحداث والتطورات الهامة التى شهدتها اليمن شمالا وجنوبا منذ أواخر الخمسينات

---

(١٢) ديساى هو رئيس حزب « جاناتا » الائتلاف اليمينى المتطرف للاقطاع والبرجوازية الهندية ، والذى استولى على السلطة فى الخمس سنوات الأخيرة بعد اقصاء انديرا غاندى رئيسة حزب المؤتمر اللبرالى القومى الذى استعاد السلطة مرة أخرى فى الانتخابات الاخيرة فى يناير ١٩٨٠ وسط صراع سياسى دموى حاد ٠

وحتى اليوم وتجر معها أوسع القطاعات الشعبية والنقابية والجماهيرية ، كما أنها قد تعرضت لتغيرات وتحولات جوهرية ايجابية فى تكوينها السياسى والأيدولوجى الى حد كبير ، انتقل بالكثير منها من الموقف البرجوازى الصغير الى الموقف الوطنى والتقدمى الصريح ، فى الوقت الـذى لم يطرأ أى تغيير يذكر على العناصر التقدمية والشيوعية التقليدية لا كما ولا كيفا ، ولم تستطع أن تشارك فى أى حدث من الأحداث التى شهدتها الساحة اليمنية حتى الآن بصورة مباشرة الا فى حدود ضيقة جدا وغير مباشرة(١٣) · ومع ذلك فان مجموع هذه العناصر فى اليمن وغير اليمن لا يمكن أن ينتزع منها حقها فى السبق التاريخى الأول فى تبنى الأفكار العلمية والتبشير بها ·

ومن هنا تتأكد حقيقة النشأة المتأخرة للمثقفين التقدميين فى اليمن والبلاد النامية بصفة عامة كطليعة جماهيرية مناضلة ، وكافراز وتطور جديد لمنظمات وحركات لبرالية وقومية قديمة ، بغض النظر عن كل النواقص التى ما تزال تلازم العناصر التقدمية من المثقفين الوطنيين فى الوطن العربى والبلدان النامية بصفة عامة وما يزالون يعانون من قلة الخبرة وعمق التجربة فى النضال الوطنى والممارسة العملية على أسس علمية وتاريخية صحيحة ، سواء منهم من تبنى التوجه اليسارى منذ البداية أو من تطور نحو هذا التوجه عبر الاتجاهات القومية واللبرالية والبرجوازية الصغيرة ·

٢ - نوع الثقافة والتعليم التقليدى

لم تكن مسألة الحداثة فى التوجه الثورى للمثقفين الوطنيين - على قلتهم حتى الآن - فى البلدان النامية والمتخلفة وتواضع خبراتهم ومراسهم النضالى فى هذا الصدد على أساس هذا التوجه هو السبب الوحيد الذى يجعل منهم عرضة لأخطاء كثيرة ، والتى منها الانفصال عن الواقع الاجتماعى والجهل الملحوظ بخصوصياته وشئونه الجزئية والكلية الى حد كبير ، الأمر الذى ما يزال ينتهى بهم من الناحية العملية على الأقل الى سوء تقدير مخيف لحجم وامكانيات هذا العامل وأولوياته الاستراتيجية الحاسمة فى عملية النضال الوطنى ·

فنوع الثقافية الاقطاعية القديمة والبرجوازية الجديدة التى تجرعتها

---

(١٣) راجع الفصل السابع من هذه الدراسة بصفة عامة ·

هذه المجتمعات منذ زمن طويل وعبر أجيال متلاحقة والمثقفون منهم بالذات من خلال البرامج التعليمية التقليدية ووسائل الدعاية والاعلام المختلفة ، قد أسهمت الى حد كبير وما تزال فى تكريس هذا الفهم الاغترابى والقطيعة بين المفاهيم النظرية والواقع العملى ، ليس بالنسبة لهذه الفئة الجديدة من المثقفين الوطنيين فحسب بل بالنسبة للمجتمع بأسره كجزء من عملية تكريس الفوارق بين الطبقات من جهة والتمكن من صياغة كل الأفكار والمفاهيم الاقطاعية والبرجوازية الخاطئة والمضللة التى تنسجم دائما ومصالح هذه الطبقات والدفاع عنها بمعزل تام عن كل حقائق الواقع والتاريخ وقوانينه ، والتى تقف دائما على النقيض من ذلك تماما .

فأساس المبدأ الجوهرى والفكرة المبدئية التى تقوم عليها برامج التعليم والثقافة الاقطاعية والبرجوازية والارستقراطية فى أى مجتمع متخلف هو النظر الى برامج التعليم باعتبارها عملية كسب لامتيازات جديدة وعملية ارتقاء اجتماعى وطبقى من أسفل الى أعلى ، وتحرر من الفعل والممارسة العملية للأعمال والمهن اليدوية والحرفية ... الخ .

كما أن التعليم والثقافة الاقطاعية والأرستقراطية فى البلدان النامية والمتخلفة كانت منذ زمن طويل وما تزال تعشعش فيها حتى اليوم هذه المفاهيم التى لا تشكل فى جوهرها عملية اغتراب وارتحال محقق من عالم العقل والواقع الى عالم الوهم والخرافة فحسب بل انها بطبيعتها تميل الى احتقار الفعل والواقع نفسه ، وتعادى منطقه العلمى بلا حدود . فقد وجدت فى كل المجتمعات الطبقية التى ظهرت فى التاريخ - كما يقول على باذيب - منذ العبودية وحتى الرأسمالية مرورا بالاقطاع ، ثقافتان لا ثقافة واحدة : ثقافة الطبقات المسيطرة وثقافة الطبقات المضطهدة (بفتح الهاء) ثقافة الطبقات المسيطرة لمصلحة النظام السائد : التعليم لمصلحة الطبقة الحاكمة ، والأفكار تمجد النظام القائم ، والفنون والأدب سخرة لخدمة القيم التى يزرعها النظام الحاكم وتنتشر الفلسفات والأفكار الرجعية المعادية للتطور والتقدم ، وفى المقابل فى ظل الصراع الطبقى تتكون ثقافة الطبقات المضطهدة بأفكارها الثورية وآدابها وفنونها الشعبية ، والقيم الثورية والانسانية الجديدة(١٤) .

---

(١٤) على باذيب : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٠٦ .

وبهذه الطريقة بالذات ومن خلال هذه القنوات الثقافية والأيديولوجية تتمكن الطبقات الاقطاعية والأرستقراطية والبرجوازية من افساد واضعاف الوعى الطبقى والتاريخى فى المجتمع بين المتعلمين وأشباه المتعلمين أو أنصاف المتعلمين بطريقة أسوأ مما هى عليه بين أوسع الجماهير من العمال والفلاحين ممن تسيطر عليهم الأمية الأبجدية ولا يجيدون القراءة والكتابة ، لأن العامل أو الفلاح أو الحرفى الأمى ، هو الأكثر ارتباطا بواقعه الاقتصادى والطبقى ولا يلتزم الا بحدود دنيا وهامشية جدا ببعض الأفكار الاقطاعية والميتافيزيقية الشائعة ، وبطريقة ملؤها السذاجة والسطحية ، والذى بالرغم من تخلف وعيه الطبقى وقدرته على تحديد مصالحه الطبقية بدقة ، الا أنه رغم كل ذلك يظل أحسن حالا من المتعلمين وأنصاف المتعلمين فى ظل النظم الأرستقراطية والاقطاعية ، لأن ذلك العامل أو الفلاح لا يحتاج الا مرة واحدة لمحو أميته الأبجدية والاجتماعية وذلك بتعليمهم القراءة والكتابة وبلورة وعيهم الطبقى والنتيجة مضمونة ، بينما يحتاج مثل أولئك المتعلمين وأشباه المتعلمين الى محو أميتهم مرتين ، لأنهم يحتاجون أولا : الا التخلص مما لصق فى أذهانهم من أفكار ومفاهيم خاطئة ومشوهة يلتزمون بها الى درجة التقديس ، ويتعصبون لها الى حد الموت ، ويمارسونها بصورة مباشرة وغير مباشرة وشعورية ولا شعورية حتى حينما يعتقدون بأنهم قد تخلصوا منها شكليا ، وهم يحتاجون ثانيا : الى استعادة وعيهم بواقعهم الطبقى المفقود والنتيجة غير مضمونة .

ومن خلال هذا المحو المزدوج للأمية بين صفوف المتعلمين والكتبة تنبثق فئة المثقفين الوطنيين والثوريين فى مجتمع اقطاعى وشبه برجوازى متخلف ، وهم الاستثناء الصعب الذى لا تحصى متاعبه ومعاناته فى الوقت الحاضر داخل البلدان النامية والمتخلفة ، بالرغم من أنهم باعتبارهم طليعة ثورية لطبقات ثورية أيضا يشكلون المدخل الوحيد الى تغيير كل الحاضر وصنع المستقبل ، ولهذا السبب تزداد متاعب المثقفين الوطنيين ومعاناتهم فى القدرة على فهم الواقع وخصوصياته المادية والتاريخية وسوء تقديرهم لدوره والرؤية الموضوعية اليه ، الأمر الذى يتحتم عليهم مواجهة هذه القضية الهامة بجدية وصبر وادراك دورهم فيها بوضوح وتواضع بلا غرور .

٣ - اختلال التوازن الحركى بين العوامل الذاتية والعوامل الخارجية

وهناك سببا آخر يأتى فى مقدمة الأسباب الرئيسية المؤدية الى سوء فهم المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة للواقع الذى يعيشون فيه والاخفاق فى تقدير امكانياته بدقة والاعتماد عليها كأساس جوهرى لعملية

التحول ، وبالتالى العجز عن الوفاء بمهامهم التاريخية والطبقية الصحيحة ، ويتمثل فى حالة التوازن المختل للمسار المتصـــاعد للثورة والفكر التقدمى فى العالم بصفة عامة ، والذى لا تساهم فيه مجموعة الشعوب النامية والمتخلفة الا بنصيب متواضع جـــدا ، لا يتناسب مطلقا وحجمها البشرى وامتدادها الجغرافى ونوع مشاكلها الاقتصـــادية والاجتمـــاعية والتـــاريخية والقومية المتميزة ٠

حيث لم تدرس كل هذه القضايا والمشاكل وتبحث جيدا حتى الآن ، بمـــا يتناسب وحجمهـــا وطبيعتها وظروفهـــا المتميزة وعلى أسس علمية لا من جانب الباحثين الوطنيين والمثقفين الثوريين من أبنـــاء هذه المجتمعات ولا من غيرهم من المتخصصين فى المجتمعات الاشتراكية ذات النهج والتجارب الثورية الناجحة والمتقدمة والتى يأتى الاتحـــاد السوفيتى فى طليعتها ، والذين أغنو تجاربهم الثورية بكل ما تحتـــاج اليه من الأبحاث والدراسات والأبعـــاد النظرية والعمـــلية المختلفة ، ونقلوها بكثافة وغزارة الى غيرهم من أبناء الشعوب الأوربية والرأسمالية وأبناء الشعوب النامية والمتخلفه على السواء ، والذين هم حقيقة فى أمس الحـــاجة اليها لكى يسترشدوا بهـــا فى نضالهم ضد ألوان القهر الاجتماعى والطبقى من جهة وكل مظاهر التخلف الاجتماعى من جهة أخرى ٠

ان المد الغزير والنشط لمفاهيم الاشتراكيه العلمية وتجاربها الثورية الناجحة فى مجموعة البـــلدان الاشتراكية المتقـــدمة وبعض الدول المحدودة فى آسيا وأمريكا اللاتينية كالفيتنام وكوبا قد أمد المفاهيم والأبعاد النظرية للاشـــتراكية العـــلمية وتطبيقاتها النـــاجحة والغنية بألوان التجـــارب والخصوصيات الذاتية المتمايزة من بلد لآخر ، وزادها غنـــا وعمقا وخصوبة على كل المستويات النظرية والعملية والشمول ٠

وأمام كل هذا كان على المثقفين الوطنيين فى كل بلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية أن يجيـــدوا الامســـاك بدقة ومهارة بين خيـــارين اثنين لا ينفصل أحدهما عن الآخر أو يقوى على الاستمرار بدونه ، وهما خيـــار البحث فى عمق الواقع الاقتصادى والاجتماعى والحضـــارى الذى يعيشون فيه بصبر وتواضع للكشف عن خصوصياته وامكانياته الذاتية فى عمـــلية النضال والتحول والانطلاق منها كبعد استراتيجى وذلك هو الخيار الأساسى الأول ، أما الخيار الثانى فهو يتمثل فى الاستيعاب الجيد لكل المفاهيم العامة والأســـاسية والشمولية للنظرية الاشتراكية العـــلمية وتجاربهـــا التطبيقية

الناجحة والاسترشاد بها بذكاء وحسن تصرف كتقريب ثانى ، وبما يخدم فى الأساس قضية الخيار الأول ويسير مهمته من أقرب الطرق وبأقل التكاليف وفى أسرع وقت ممكن وبغير ضجيج ٠

لأن المثقفين الثوريين - كما يقول بوتومورو - يكتسبون مزيدا من القوة عن طريق تبنى الماركسية كعقيدة سياسية وتكوين الأحزاب الشيوعية والمنظمات المشابهة التى تجعلهم على صلة وثيقة بالعمال الصناعيين وفقراء الفلاحين بصفة عامة(١٥) ٠

لقد كان ذلك وما يزال هو المفروض الا أننا اذا ما أردنا أن نراجع ما حدث وما يزال يحدث بالفعل فى موقف المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة ازاء هذه القضية الهامة لوجدنا من الوقائع والممارسات ما لا يبعث على التفاؤل تجاه هذه القضية حتى الآن ، فاذا ما تذكرنا أن عهد المثقفين الوطنيين والثوريين بالفكر العلمى والنظرية العلمية والتزامهم الناجز والحاسم بها كطريق للنضال والتحول نحو الأفضل ما يزال جديدا وغضا ولم يتجاوز فى كثير من الحالات حدود التوجه الجاد واعلان الرغبة الصادقة ، وذاك هو أحد الخيارين السابق ذكرهما ، الا أن اقتدار هؤلاء المثقفين على استيعاب واقعهم الاجتماعى والتاريخى والقومى والثقافى على أسس علمية والكشف عن خصوصياته وامكانياته الذاتية فى عملية النضال والتحول - وهو الخيار الأساسى الأول المشار اليه سابقا - ما يزال أمرا بعيد المنال ومن اختصاص المستقبل القريب فى أحسن الأحوال ، بالرغم من أن هذا الأمر هو مسألة مصرية لا بديل عنها ولا خيار فى سواها ٠

فلقد أكد لينين منذ البداية أن المسألة ليست هى « أن نخترع ثقافة بروليتارية جديدة » بل هى أن ننمى ونطور أبهى النماذج والتقاليد وحصيلة الثقافة الموجودة من وجهة النظر الماركسية عن العالم وأوضاع حياة البروليتاريا ونضالها(١٦) ٠

ذلك أن المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة وهم يناضلون ويتحركون بجدية من أجل اثبات وتأكيد توجههم العلمى الجديد فانهم

---

(١٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٣ ٠

(١٦) راجع على باذيب : ثقافتنا الوطنية وآفاق تطورها : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، مرجع سابق ، ص ١١٧ ٠

يحاولون اثبات وتأكيد كل ذلك من خلال اختيار بعد أحادى النزعة ، وهو التركيز على استيعاب المفاهيم النظرية العلمية العامة والالمام الجيد بتطبيقاتها العملية الناجحة هنا وهناك وحسب ، فيما يشبه عملية التعلم وتوسيع المدارك الثقافية والشخصية البحتة أو الجماعية الصغيرة (تجمعات سياسية صغيرة متعددة). واكتساب أدبيات ثقافية معينة فى الفكر لا تختلف كثيرا فى تأثيرها وفاعليتها فى المجتمع عن أى أدبيات لغوية أو فنية أو أخلاقية أخرى ، فى المجتمع الا من حيث المجال فحسب ،

وهم - أى هؤلاء المثقفون الوطنيون فى هذه المرحلة بالذات - لا يديرون ظهورهم تجاه الواقع والعدول عن تحمل أعباء ومشاق البحث فيه باعتباره البعد الحقيقى والحاسم لصدق توجههم الجديد فحسب بل غالبا ما يميلون الى ازدرائه بالفعل واصدار أحكام مسبقة وسطحية جدا ومثقلة بالجهالة والأنانية حينا ، وسوء الرؤية والمراهقة الذهنية أحيانا كثيرة ، كالقول مثلا بأن الواقع المتخلف بكل أبعاده قضية سلبية ينبغى تجاوزها فورا بعملية ثورية ناجزة ، وأن اللجوء الى مداراته حتى يتجاوز نفسه بنفسه ، هو نوع من السلبية وتضييع الوقت فى ما لا طائل منه ، أو القول مثلا بأن الحاضر والماضى برمته هو تركيب رجعى متخلف بالكامل وأن التعامل معه أو البحث عن عوامل ايجابية فيه هو نوع من التراجع والخضوع له ، ان لم يكن سلوك رجعى فى حد ذاته ... الخ . متجاهلين أن المثقف الثورى - كما يقول لينين - يصبح مجرد دعى سخيف اذا لم يتمثل وجدانه جميع المعارف التى كدسها العلم البشر ... والتى لا يمكن للمرء بدون معرفتها أن يكون انسانا مثقفا(١٧) .

وحتى يقنع مثل هؤلاء المثقفين أنفسهم على الأقل بمثل تلك المقولات الشوهاء والأحكام المتعسفة ، فانهم يضيفون القول : بأنه ما دامت قد توفرت لدينا من المفاهيم والأبعاد النظرية والتجارب العملية الكثيرة لقوانين التحول الاجتماعى التى أثبتت نجاحها هنا وهناك ، فلماذا نضيع الوقت ونهدر الامكانيات فى تجريب المجرب من باب تحصيل حاصل .

والحقيقة أن مثل هؤلاء المثقفين رغم صدق وطنيتهم لا يبحثون من خلال مثل هذه المبررات والتفسيرات اللاثورية واللاعلمية عن حقيقة معينة بقدر

---

(١٧) لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم بموسكو ، ص ١٢٣ .

ما أنهم يبحثون من خلالهـا عن مبرر سخيف لعجزهم عن استيعاب واقعهم وظروفه الذاتية والموضوعية والتضحية الفعلية فى سبيله ، ولقد كان لينين يحذر المثقفين الوطنيين والثوريين من مثل هذا الفهم والتصرف البرجوازى المشوب بالمثـــالية بالقول : انكم تقترفون خطـــأ جسيما اذا ما شئتم أن تستنتجوا أنه بالامكان أن يصبح المرء شيوعيا دون استيعاب المعارف التى كدسها العلم البشرى ، ومن الخطـــأ التفكير بأنه يكفى استيعاب الشعارات الشيوعية(١٨) ٠

وعلى العكس من ذلك ففى معظم البلدان النامية - كما يقول بوتومورو - قد تكون الأفكار التقليدية أكثر قوة وأشد انسجاما مع الماركسية ٠٠ لكن تأثير المثقفين الثوريين قد يظل ضعيفا ، أما لوجود سلطات حاكمة فعالة تقيم سياستها على المذاهب القومية أو اللبرالية ، واما لأن المثقفين معزولين عن بقية السكان نتيجة ثقافتهم الغربية ٠ وقد لا يمثل المثقفون فى بعض المواقف جماعة سياسية فعـــالة على الاطلاق(١٩) ٠ وهكذا تنقلب المقاييس العلمية والنضالية الحقة فى أذهان مثل هؤلاء المثقفين رأسا على عقب رغم صـــدق توجههم الوطنى ونواياهم الطيبة الى نزعة شوفينية خطيرة ، وتشوه اجتماعى وسياسى واضح ، ينتهى بكل قضيتهم وما يحلمون به الى ما يشبه الميكروب الغريب فى الجسم الذى تعمل كل أعضاؤه على محـاصرته والتخـلص منه تلقائيا ٠

وهناك أكثر من سبب وأكثر من عامل حقيقى يكمن وراء هذا الموقف أو التقدير الخاطىء للواقع من قبل معظم المثقفين الوطنيين فى البلدان النامية والمتخلفة وعدم قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم ازاء هـذا الواقع حتى الآن ، يأتى فى مقدمتها تعدد المصاعب والمشقات الحقيقية التى يصطدمون بها عند أول خطوة فى التعامل مع واقعهم الاجتماعى والتاريخى والقومى وما يتطلبه منهم من صبر ومثابرة وتضحية غير محدودة فى التنقيب والبحث والدراسة المستفيضة لواقعهم وخصوصياته وصـــولا الى فهمه فهما علميا وتاريخيـا ناضجا وتأكيد توجههم الثورى والتقدمى الجديد من خلال ذلـــك ، حيث ما تزال مثل هـــذه المهمة هى أكبر من حدود طاقتهم وامكانياتهم الحقيقية واستعداداتهم الذاتية فى الوقت الحـاضر على الأقل ، رغم أن الوفاء بمثل

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٢٠ ٠

(١٩) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٥ ٠

هـــذه المهمة لا يشكل البرهان الحقيقى على تأكيد وجودهم كطلائع ثورية جديدة لطبقات ثورية فحسب بل ان توفر مثل هـــذا الأمر يشـكل المدخل التاريخى الأول والحاسم فى عملية احداث تحول اقتصادى واجتماعى ثورى وتاريخى حاسم بغير بديل ٠

فلقد أكد لينين على هذه الحقيقة فى المؤتمر الأول للمجالس الاقتصادية قائلا : يجب أن نفهم كياننا الاقتصادى خلال عملية العمل ذاتها مجربين للنظم المتنوعة مراقبين لعملها ، مختبرين اياها بالخبرة الجماعية العـامة للشعب العامل ، وفوق ذلك كله بنتائج العمل ، يجب أن نفعل ذلـــك خلال عملية العمل ذاتها(٢٠) وفى كل مرة كانت الثورة تتقدم خطوة الى الأمام كان لينين يصرخ بفرح وتواضع : لقد بدأنا نتعلم أيها الرفاق وما يزال علينا أن نتعلم الكثير لأن تجربتنا هى الأولى من نوعها فى التاريخ(٢١) ٠

الا أن المثقفين الوطنيين فى المجتمعات المتخلفـــة يلجأون بدلا من ذلك وبدافع من العجز والشح فى التضحية وانعـــدام الصبر والمثابرة المصيرية ومغالطة الذات أحيـــانا فى محاولة اثبـات هويتهم الاجتماعية والسياسية كتقدميين ثوريين ، يلجأون الى الاسراف فى التشيع لبعض العوامل الثانوية فى النضال الوطنى والتضخيم من حجمها أكثر من اللازم والتورط فى طرحها وكما لو كانت هى جوهر المشكلة وجوهر الحل فى الوقت نفسه ، كالجدل العميق حول بعض القضايا النظرية البحتة ووجهات النظر الفردية والجماعية المتباينة الى هذا الحد أو ذاك ٠٠٠ الخ ٠

ذلك أن قراءة كتابا معقدا فى السياسة والفلسفة أو غير ذلك والمجادلة فيه ومن خلاله فى قضايا نظرية بحتـــة بلا كلل ما يزال بالنسبة للمثقف الوطنى فى بلد متخلف هو أيسر عليـــه وأقرب الى نفسه ألف مرة من أجل اثبات وطنيته من أن يقوى على مغادرة المدينة والوظيفة الناعمة والعودة الى أسرته وقريته من جديد والبحث فيما اذا كانت هناك عادة شعبية ما حسنة فى حياة الفلاحين يمكن تطويرها والانطلاق منها فى خدمة النضال والتحول ، وأخرى سيئة يمكن محاصرتها والتغلب عليها من خلال الناس أنفسهم والعمل

---

(٢٠) راجع مجلة الطليعة المصرية عدد ابريل ١٩٧٠ ص ٧٢ (عدد خاص عن لينين فى الذكرى الخمسين لوفاته) ٠

(٢١) حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة . طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٨٧ و ٨٨ ٠

معهم وبهم ، بصبر وتواضع وبعيدا عن الغرور والأنانية وفى هدوء بغير ضجيج وبلا ترف ذهنى ٠

ذلك أن الماركسية ـ كما يقول لينين لم تطرح جانبا على الاطلاق أثمن مكتسبات العهد البرجوازى ، بل بالعكس ، استوعبته وأعادت صياغة كل ما كان ذا قيمة فى تطور الفكر البشرى والثقافة البشرية خلال أكثر من ألف عام ٠٠ ويضيف مؤكدا : لا اختلاق لثقافة بروليتارية جديدة ، بل تطوير خبرة نماذج وتقاليد ونتائج الثقافة الموجودة(٢٢) ٠

فوسائل التثقيف والاعلام والنشر والدراسات المكثفة عن المفاهيم النظرية العلمية والتجارب الاشتراكية والتقدمية الناجحة جملة وتفصيلا فى المعسكر الاشتراكى بصفة عامة ، وفى مقابل الندرة ، ان لم يكن الانعدام شبه التام لمثل هذه الدراسات والوسائل بالنسبة لمجموعة الشعوب النامية والمتخلفة ـ على نحو ما سبقت الاشارة فى مكان سابق من هذا البحث ـ قد ساعد الى حد كبير على اختلال التوازن بين العوامل الداخلية والذاتية والعوامل الخارجية بصفة عامة ، وبين ما هو رئيسى وثانوى فى تركيب أولويات النظام الوطنى فى هذه الشعوب وبين مثقفيها الوطنيين على وجه التحديد ٠ حيث صارت كثير من القضايا الجوهرية تبدو وكأنها مقلوبة على رأسها ، وتحل القضايا التكتيكية محل القضايا الرئيسية والعوامل الثانوية محل العوامل الرئيسية فى كثير من الأمور على نحو ما سبقت الاشارة ، ففى اليمن مثلا نجد الآن ـ كما يقول عبدالفتاح اسماعيل ـ أن أكثر مثقفينا ولعا بالثقافة والأدب يفهمون جيدا ما يدور من جديد على الصعيد الثقافى فى الوطن العربى والخارجى ، ويفهمون أيضا أدبيات الاشتراكية العلمية ، لكنهم لا يعطون اهتماما ولا يوجهون جهودهم الثقافية لمعرفة ثقافتهم الوطنية ٠٠ فغالبيتهم ما يزالوا يعانوا من فقر فى هذا الجانب ، بينما نجد أن كبار

)٢٢(لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، ص ١٤٧ و ١٤٨ ٠

المثقفين الاقطاعيين والرجعيين - وهم ضد كل تطور وتقدم ثقافى - هم حفظة للتراث الكلاسيكى اليمنى فى التاريخ والأدب(٢٣) ٠

وبعد ، فان البعض قد ينتظر منا أن نبـــدأ بتعداد أسباب النجـــاح وتحليلها كما فعلنا فى تحليل أسباب العجز والتعثر ، ونحن لا نرى ضرورة لذلك بأى حال لأن ادراك الخطـــأ والوعى به هو نصف الطريق الى الحل والنجاح ان لم يكن هو النجاح الحقيقى نفسه ، لأن ما بعد معرفة الطريق الصحيح وتحديد معـــالمه بدقة هو أمر يهم السائرين عليه أكثر من غيرهم والألف ميل يبدأ بخطوة واشعال شمعة خير من لعن الظلام ٠

---

(٢٣) عبد الفتاح اسماعيل : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٦ ٠

المراجع

- لينين : فى الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم ، موسكو ٠
- حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة ، دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى ، طبعة القاهرة ١٩٧٧ ٠
- د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ٠
- عدد من المثقفين اليمنيين : مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٥ ٠
- د٠ محمد على محمد وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ ٠
- د٠ دورسون : نظريات فى الفولكلور المعاصر ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور حسن الشامى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ١٩٧٢ ٠
- د٠ محمد نبيل السمالوطى : علم اجتماع التنمية ، دراسة فى اجتماعيات العالم الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ٠
- حمود العودى : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ٠ دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٨٠ ٠
- مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ترجمة الدكتور داود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٤ ٠
- بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ٠
- لينين : المؤلفات ، المجلد السابع ٠

- روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، تعريب ابراهيم قريط ، دار دمشق للطباعة والنشر ٠

- نيقولا تيماشيف : نظرية علم الإجتمـــاع نشأتها وتطورها ، ترجمة الدكتور محمود عودة وزملاؤه ، دار المعارف بمصر ، الطبعـــة الخامسة ١٩٧٨ ٠

- س٠ ى٠ بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٣ ٠

- موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمـــال الأتاسى وسامى الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ٠

- لينين : كتاب ما العمل ، دار التقدم ، موسكو ٠

- رودلفو استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعـــات الزراعية ، نقله الى العربية ناجى أبو خليل ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ ٠

- بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ترجمة ونشر دار الحقيقة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ٠

- د٠ محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعـارف بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ ٠

- د٠ أحمد شلبى : الديانة الهنـــدية واليهودية والمسيحية والاســلام ، سلسلة مقارنة الأديان من أربعـــة أجزاء ، دار نهضـــة مصر ، طبعة ١٩٧٧ ٠

- سلطان أحمد عمر : نظرة فى تطور المجتمـــع اليمنى ، دار الطليعـــة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ ٠

- عبد الفتاح اسماعيل : كتابات مختارة حول الثورة الوطنية الديمقراطية وآفاقها الاشتراكية ، دار الفـــارابى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ ٠

- الثورة الوطنية الديمقراطية فى اليمن : سلسلة وثائق : دار بن خلدون بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ ٠

- د. سيد عويس ، حديث عن الثقافة ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٧٠ .

- فردهولايد : الصراع السياسى فى الجزيرة العربية (اليمن - السعودية - عمان) دار ابن خلدون ، بيروت ، ترجمة حازم صاغيه وسعد محيو ، ١٩٧٨ .

- حمود العودى : التنمية وتجربة العمل التعاونى فى اليمن ، طبعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

- لجنة من تنظيم الضباط الأحرار : أسرار ووثائق الثورة اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ .

- هارولد انجرمان : اليمن الحكام والثورات ، طبع فى بريطانيا بالعربية ، عام ١٩٦٢ .

- عبد الله جزيلان : التاريخ السرى للثورة اليمنية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ .

- الجهاز المركزى للتخطيط صنعاء : كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٦ .

- مجلة عالم الفكر الكويتية : عدد ابريل - مايو ١٩٧٩ (عن الاغتراب)

- محمد يحى الحداد : تاريخ اليمن السياسى ، عالم الكتب المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ .

- عبد الله الكميم : مؤشرات المستقبل التعليمى واختلال توازنه فى الجمهورية العربية اليمنية ، مقال فى مجلة الغد اليمنية ، عدد يناير - فبراير ١٩٧٨ .

- حمود العودى : نحو رؤية وقراءة جديدة للتاريخ والتراث ، دراسة فى مجلة الغد اليمنية ، عدد مارس - ابريل ١٩٧٨ .

- د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ، مؤسسة روزاليوسف بمصر .

- عبد الله الأصنج : كتيب هذا موقفنا ، الصادر عن حزب الشعب الاشتراكى فى عدن عام ١٩٦٣ .

- عادل رضا : ثورة الجنوب تجربة النضال وقضايا المستقبل ، دار المعارف المصرية ١٩٦٩ .

- مقررات المؤتمر الرابع للجبهة القومية ، مارس ١٩٦٨ .
- لينين : الى الفلاحين الفقراء ، دار التقدم ، موسكو .
- لينين - ماركس - انجلز : الماركسية ، دار التقدم ، موسكو .
- مجلة الطليعة المصرية عـــدد ابريل ١٩٧٠ (عـــدد خاص عن لينين فى الذكرى الخمسين لوفاته) .